مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُون

وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمّى

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر

ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون

٧٣٢-٨٠٨هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦م

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس

الاستاذ خليل شحادة

مراجعة الدكتور

سهيل زكار

طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز بفهارس للموضوعات والأعلام والاماكن الجغرافية

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb

دار الفكر

حارة حريك - شارع عبد النور - برقيًا: فكسي - ص.ب: ١١/٧٠٦١
تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣
فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤



الفصل الخامس والأربعون

في علوم اللسان العربي

أَرْكَانُهُ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ اللُّغَةُ وَالنَّحْوُ وَالْبَيَانُ وَالأَدَبُ وَمَعْرِفَتِهَا ضَرُورِيَّةٌ على أَهْلِ الشَّرِيعَةِ إِذْ مَأخَذُ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهِيَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَنَقَلَتُهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَرَبٌ وَشَرْحُ مُشْكِلَاتِهَا مِنْ لُغَاتِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا اللِّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الشَّرِيعَةِ . وَتَتَفَاوَتُ في التَّأكِيدِ بِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا في التَّوْفِيَةِ بِمَقْصُود الْكَلَامِ حَسْبَمَا يَتَبَيَّنُ في الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَنًّا فَنًّا وَالَّذِي يَتَحَصَّلُ أَنَّ الأَهَمَّ الْمُقَدَّمَ مِنْهَا هُوَ النَّحْوُ إِذْ بِهِ تَتَبَيَّنُ أُصُولُ الْمَقَاصِدِ بِالدَّلَالَةِ فَيُعْرَفُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ وَلَوْلَاهُ لَجُهِلَ أَصْلُ الإِفَادَةِ . وَكَانَ مِنْ حَقِّ عِلْمِ اللُّغَةِ التَّقَدُّمُ لَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ الأَوْضَاعِ بَاقِيَةٌ في مَوْضُوعَاتِهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ بِخِلَافِ الإِعْرَابِ الدَّالِّ عَلى الإِسْنَادِ وَالْمُسْنَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ تَغَيَّرَ بِالْجُمْلَةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ. فَلِذَلِكَ كَانَ عِلْمُ النَّحْوِ أَهَمَّ مِنَ اللُّغَةِ إِذْ في جَهْلِهِ الإِخْلَالُ بِالتَّفَاهُمِ جُمْلَةً وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ اللُّغَةُ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

علم النحو

إِعْلَمْ أَنَّ اللُّغَةَ في الْمُتَعَارَفِ هِيَ عِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ . وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ فِعْلٌ لِسَانِيٌّ نَاشِئٌ عَنِ الْقَصْدِ بِإِفَادَةِ الْكَلَامِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرِّرَةً في الْعُضْوِ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ اللِّسَانُ وَهُوَ في كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اصْطِلَاحَاتِهِمْ . وَكَانَتِ الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذلِكَ أَحْسَنَ الْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ الْمَقَاصِدِ لِدَلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلى كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي . مِثْلَ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تُعَيِّنُ الْفَاعِلَ مِنَ الْمَفْعُولِ مِنَ الْمَجْرُورِ أَعْنِي الْمُضَافَ وَمِثْلَ الْحُرُوفِ الَّتِي تُفْضِي بِالأَفْعَالِ أَي الْحَرَكَاتِ إِلى الذَّوَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفِ أَلْفَاظٍ أُخْرَى . وَلَيْسَ يُوجَدُ ذلِكَ إِلاَّ في لُغَةِ

الْعَرَبِ . وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنىً أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَلْفَاظٍ تَخُصُّهُ بِالدَّلَالَةِ وَلِذلِكَ نَجِدُ كَلَامَ الْعَجَمِ مِنْ مُخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدِّرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَاراً » . فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ . وَالْحَرَكَاتِ وَالْهَيْئَاتِ أَيِ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرَ مُتَكَلِّفِينَ فِيهِ لِصِنَاعَةٍ يَسْتَفِيدُونَ ذلِكَ مِنْهَا . إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَلْسِنَتِهِمْ يَأْخُذُهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ كَمَا تَأْخُذُ صِبْيَانُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَاتِنَا . فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لِطَلَبِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ وَخَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَةُ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا السَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي لِلْمُسْتَعْرِبِينَ[1] . وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللِّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أُلْقِيَ إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِجُنُوحِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِيَادِ السَّمْعِ . وَخَشِيَ أَهْلُ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ الْمَلَكَةُ رَأْساً وَيَطُولَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنْ مَجَارِي كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَةِ مُطَّرِدَةً شِبْهَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْقَوَاعِدِ يَقِيسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيُلْحِقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولَ مَنْصُوبٌ وَالْمُبْتَدَأَ مَرْفُوعٌ . ثُمَّ رَأَوْا تَغَيُّرَ الدَّلَالَةِ بِتَغَيُّرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهِ إِعْرَاباً وَتَسْمِيَةِ الْمُوجِبِ لِذلِكَ التَّغَيُّرِ عَامِلاً وَأَمْثَالِ ذلِكَ . وَصَارَتْ كُلُّهَا اصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً . وَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِعِلْمِ النَّحْوِ . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، وَيُقَالُ بِإِشَارَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغَيُّرَ الْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهَا فَفَزِعَ إِلَى ضَبْطِهَا بِالْقَوَانِينِ الْحَاصِرَةِ الْمُسْتَقْرَأَةِ . ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنِ انْتَهَتْ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ الرَّشِيدِ وَكَانَ النَّاسُ أَحْوَجَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَيْهَا لِذَهَابِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ . فَهَذَّبَ الصِّنَاعَةَ وَكَمَّلَ أَبْوَابَهَا . وَأَخَذَهَا عَنْهُ سِيبَوَيْهِ فَكَمَّلَ تَفَارِيعَهَا وَاسْتَكْثَرَ مِنْ أَدِلَّتِهَا وَشَوَاهِدِهَا وَوَضَعَ

---

(١) وفي نسخة أخرى: للمتعربين من العجم.

فيهَا كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ الَّذِي صَارَ إِمَاماً لِكُلِّ مَا كُتِبَ فِيهَا مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ وَضَعَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الزَّجَّاجُ كُتُباً مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْذُونَ فِيهَا حَذْوَ الإِمَامِ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ طَالَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَحَدَثَ الْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمِصْرَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ . وَكَثُرَتِ الأَدِلَّةُ وَالْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ وَتَبَايَنَتْ الطُّرُقُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثُرَ الاخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ . وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ فِي الاخْتِصَارِ فَاخْتَصَرُوا كَثِيراً مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ اسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا نُقِلَ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَأَمْثَالِهِ أَوِ اقْتِصَارِهِمْ عَلَى الْمَبَادِىءِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ ، كَمَا فَعَلَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْمُفَصَّلِ وَابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمُقَدِّمَةِ لَهُ . وَرُبَّمَا نَظَمُوا ذَلِكَ نَظْماً مِثْلَ ابْنِ مَالِكٍ فِي الأُرْجُوزَتَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَابْنِ مُعْطِي فِي الأُرْجُوزَةِ الأَلْفِيَّةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالتَّآلِيفُ فِي هَذَا الْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطُرُقُ التَّعْلِيمِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَطَرِيقَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لِطَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ . وَالْكُوفِيُّونَ وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ وَالأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلِفَةٌ طُرُقُهُمْ كَذَلِكَ . وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ تُؤْذِنُ بِالذَّهَابِ لِمَا رَأَيْنَا مِنَ النَّقْصِ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتَنَاقُصِ الْعُمْرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ دِيوَانٌ مِنْ مِصْرَ مَنْسُوبٌ إِلَى جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا اسْتَوْفَى فِيهِ أَحْكَامَ الإِعْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفَصَّلَةً . وَتَكَلَّمَ عَلَى الْحُرُوفِ وَالْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمَلِ وَحَذَفَ مَا فِي الصِّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَكَرِّرِ فِي أَكْثَرِ أَبْوَابِهَا وَسَمَّاهُ بِالْمُغْنِي فِي الإِعْرَابِ . وَأَشَارَ إِلَى نُكَتِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا بِأَبْوَابٍ وَفُصُولٍ وَقَوَاعِدَ انْتَظَمَ سَائِرُهَا فَوَقَفْنَا مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ جَمٍّ يَشْهَدُ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَوُفُورِ بِضَاعَتِهِ مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْحَاةَ أَهْلِ الْمَوْصِلِ الَّذِينَ اقْتَفَوْا أَثَرَ ابْنِ جِنِّيٍّ وَاتَّبَعُوا مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ دَالٍّ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ . وَاللهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ بَيَانُ الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَذلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَ أَهْلِ النَّحْوِ بِالإِعْرَابِ وَاسْتُنْبِطَتِ الْقَوَانِينُ لِحِفْظِهَا كَمَا قُلْنَاهُ . ثُمَّ اسْتَمَرَّ ذلِكَ الْفَسَادُ بِمُلَابَسَةِ الْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ حَتَّى تَأَدَّى الْفَسَادُ إِلَى مَوْضُوعَاتِ الأَلْفَاظِ فَاسْتُعْمِلَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ عِنْدَهُمْ مَيْلاً مَعَ هُجْنَةِ[1] الْمُسْتَعْرِبِينَ[2] فِي اصْطِلَاحَاتِهِمُ الْمُخَالِفَةِ لِصَرِيحِ الْعَرَبِيَّةِ فَاحْتِيجَ إِلَى حِفْظِ الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ بِالْكِتَابِ وَالتَّدْوِينِ خَشْيَةَ الدُّرُوسِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فَشَمَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ اللِّسَانِ لِذلِكَ وَأَمْلَوا فِيهِ الدَّوَاوِينَ . وَكَانَ سَابِقَ الْحَلْبَةِ فِي ذلِكَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيُّ. أَلَّفَ فِيهَا كِتَابَ الْعَيْنِ فَحَصَرَ فِيهِ مُرَكَّبَاتِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ كُلَّهَا مِنَ الثُّنَائِيِّ وَالثُّلَاثِيِّ وَالرُّبَاعِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ وَهُوَ غَايَةُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَتَأَتَّى لَهُ حَصْرُ ذلِكَ بِوُجُوهٍ عَدِيدَةٍ حَاصِرَةٍ وَذلِكَ أَنَّ جُمْلَةَ الْكَلِمَاتِ الثُّنَائِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ الأَعْدَادِ عَلَى التَّوَالِي مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ وَهُوَ دُونَ نِهَايَةِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِوَاحِدٍ . لأَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مِنْهَا يُؤْخَذُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَالْعِشْرِينَ فَتَكُونُ سَبْعَةً وَعِشْرِينَ كَلِمَةً ثُنَائِيَّةً . ثُمَّ يُؤْخَذُ الثَّانِي مَعَ السِّتَّةِ وَالْعِشْرِينَ كَذلِكَ . ثُمَّ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ . ثُمَّ يُؤْخَذُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ مَعَ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ فَيَكُونُ وَاحِداً فَتَكُونُ كُلُّهَا أَعْدَاداً عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ فَتُجْمَعُ كَمَا هِيَ بِالْعَمَلِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِسَابِ وَهُوَ أَنْ تَجْمَعَ الأَوَّلَ مَعَ الأَخِيرِ وَتَضْرِبَ الْمَجْمُوعَ فِي نِصْفِ الْعِدَّةِ . ثُمَّ تُضَاعِفُ لأَجْلِ قَلْبِ الثُّنَائِيِّ لأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ بَيْنَ الْحُرُوفِ مُعْتَبَرٌ فِي التَّرْكِيبِ فَيَكُونُ الْخَارِجُ جُمْلَةَ الثُّنَائِيَّاتِ . وَتَخْرُجُ الثُّلَاثِيَّاتُ مِنْ ضَرْبِ عَدَدِ الثُّنَائِيَّاتِ فِيمَا يَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ عَلَى

---

(١) الهجنة في الكلام ، العيب والقبح (قاموس) .

(٢) وفي نسخة أخرى ، المتعربين .

تَوالِي الْعَدَدِ لأنَّ كُلَّ ثُنائِيَّةٍ يَزِيدُ عَلَيْهَا حَرْفاً فتَكُونُ ثُلاثِيَّةً . فَتكُونُ الثُّنائِيَّةُ بِمَنْزِلَةِ الحَرْفِ الْواحِدِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْباقِيَةِ وَهِيَ سِتَّةٌ وَعِشْرُون حَرْفاً بَعْدَ الثُّنائِيَّةِ فَتُجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إلى سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ عَلى تَوالِي الْعَدَدِ وَيُضْرَبُ فِيهِ جُمْلَةُ الثُّنائِيَّاتِ . ثُمَّ تَضْرِبُ الْخَارِجَ في سِتَّةٍ . جُمْلَةَ مَقْلُوبَاتِ الْكَلِمَةِ الثُّلاثِيَّةِ فَيَخْرُجُ مَجْمُوعُ تَراكِيبِهَا مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ . وَكَذلِكَ في الرُّباعِيِّ وَالْخُماسِيِّ . فَانْحَصَرَتْ لَهُ التَّرَاكِيبُ بِهَذَا الْوَجْهِ ورَتَّبَ أَبْوابَهُ عَلى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِالتَّرْتِيبِ الْمُتَعَارَفِ . وَاعْتَمَدَ فِيهِ تَرْتِيبَ الْمَخارِجِ فَبَدَأَ بِحُرُوفِ الْحَلْقِ ثُمَّ بَعْدَهُ مِنْ حُرُوفِ الْحَنَكِ ثُمَّ الأَضْرَاسِ ثُمَّ الشَّفَةِ وَجَعَلَ حُرُوفَ الْعِلَّةِ آخِراً وَهِيَ الْحُرُوفُ الْهَوائِيَّةُ . وَبَدَأَ مِنْ حُرُوفِ الْحَلْقِ بِالْعَيْنِ لأنَّهُ الأَقْصَرُ[1] مِنْهَا فَلِذلِكَ سُمِّيَ كِتَابُهُ بِالْعَيْنِ لأنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يَذْهَبُونَ في تَسْمِيَةِ دَوَاوِينِهِمْ إلى مِثْلِ هَذا وَهُوَ تَسْمِيَتُهُ بِأَوَّلِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالأَلْفاظِ . ثُمَّ بَيَّنَ الْمُهْمَلَ مِنْهَا مِنَ الْمُسْتَعْمَلِ وَكَانَ الْمُهْمَلُ في الرُّباعِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ أَكْثَرَ لِقِلَّةِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ لَهُ لِثِقَلِهِ وَلَحِقَ بِهِ الثُّنائِيُّ لِقِلَّةِ دَوَرَانِهِ وَكَانَ الاسْتِعْمَالُ في الثُّلاثِيِّ أَغْلَبَ فَكانَتْ أَوْضَاعُهُ أَكْثَرَ لِدَوَرانِهِ . وَضَمَّنَ الْخَلِيلُ ذلِكَ كُلَّهُ في كِتَابِ الْعَيْنِ وَاسْتَوْعَبَهُ أَحْسَنَ اسْتِيعَابٍ وَأَوْعَاهُ[2] . وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ الزُّبيدِيُّ وَكَتَبَ لِهِشَامٍ الْمُؤَيَّدِ بِالأَنْدَلُسِ في الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَاخْتَصَرَهُ مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلى الاسْتِيعَابِ وَحَذَفَ مِنْهُ الْمُهْمَلَ كُلَّهُ وَكَثِيراً مِنْ شَوَاهِدِ الْمُسْتَعْمَلِ وَلَخَّصَهُ لِلْحِفْظِ أَحْسَنَ تَلْخِيصٍ . وَأَلَّفَ الْجَوْهَرِيُّ مِنَ الْمَشارِقَةِ كِتَابَ الصِّحَاحِ عَلى التَّرْتِيبِ الْمُتَعَارَفِ لِحُرُوفِ الْمُعْجَمِ فَجَعَلَ الْبِدَاءَةَ مِنْهَا بِالْهَمْزَةِ وَجَعَلَ التَّرْجَمَةَ بِالْحُرُوفِ عَلى الْحَرْفِ الأَخِيرِ مِنَ الْكَلِمَةِ لاِضْطِرارِ النَّاسِ في الأَكْثَرِ إلى أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَجَعَلَ ذلِكَ بَاباً . ثُمَّ يَأْتِي بِالْحُرُوفِ أَوَّلَ الْكَلِمَةِ عَلى تَرْتِيبِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ أَيْضاً وَيُتَرْجِمُ عَلَيْهَا بِالْفُصُولِ إلى آخِرِهَا . وَحَصَرَ اللُّغَةَ اقْتِدَاءً بِحَصْرِ الْخَلِيلِ . ثُمَّ أَلَّفَ

(١) وفي نسخة أخرى : الأقصى .

(٢) وفي نسخة أخرى : وأوفاه .

فِيهَا مِنَ الأَنْدَلُسِيِّينَ ابْنُ سِيدَه مِنْ أَهْلِ دَانِيَةَ في دَوْلَةِ عَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ كِتَابَ الْمُحْكَمِ عَلى ذلِكَ الْمنحى مِنَ الاِسْتِيعَابِ وَعَلى نَحْوِ تَرْتِيبِ كِتَابِ الْعَيْنِ . وَزَادَ فِيهِ التَّعَرُضَ لِاشْتِقَاقَاتِ الْكَلِمِ وَتَصَارِيفِهَا فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الدَّوَاوِينِ . وَلَخَّصَهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ صَاحِبُ الْمُسْتَنْصِرِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ بِتُونِسَ . وَقَلَبَ تَرْتِيبَهُ إِلى تَرْتِيبِ كِتَابِ الصِّحَاحِ في اعْتِبَارِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ وَبِنَاءِ التَّرَاجِمِ عَلَيْهَا فَكَانَا تَوْأَمَي رَحِمٍ وَسَلِيلَي أُبُوَّةٍ وَلِكِرَاعٍ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ كِتَابُ الْمُنْجِدِ ، وَلِابْنِ دُرَيْدٍ كِتَابُ الْجَمْهَرَةِ وَلِابْنِ الأَنْبَارِيِّ كِتَابُ الزَّاهِرِ هَذِهِ أُصُولُ كُتُبِ اللُّغَةِ فِيمَا عَلِمْنَاهُ . وَهُنَاكَ مُخْتَصَرَاتٌ أُخْرَى مُخْتَصَّةٌ بِصِنْفٍ مِنَ الْكَلِمِ وَمُسْتَوْعِبَةٌ لِبَعْضِ الأَبْوَابِ أَوْ لِكُلِّهَا . إِلاَّ أَنَّ وَجْهَ الْحَصْرِ فِيهَا خَفِيٌّ وَوَجْهَ الْحَصْرِ في تِلْكَ جَلِيٌّ مِنْ قِبَلِ التَّرَاكِيبِ كَمَا رَأَيْتَ . وَمِنَ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ أَيْضاً في اللُّغَةِ كِتَابُ الزَّمَخْشَرِيِّ في الْمَجَازِ سَمَّاهُ أَسَاسَ الْبَلاَغَةِ بَيَّنَ فِيهِ كُلَّ مَا تَجَوَّزَتْ بِهِ الْعَرَبُ مِنَ الأَلْفَاظِ وَفِيمَا تَجَوَّزَتْ بِهِ مِنَ الْمَدْلُولاَتِ وَهُوَ كِتَابٌ شَرِيفُ الإِفَادَةِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ تَضَعُ الشَّيْءَ عَلى الْعُمُومِ ثُمَّ تَسْتَعْمِلُ في الأُمُورِ الْخَاصَّةِ أَلْفَاظاً أُخْرَى خَاصَّةً بِهَا فَوْقَ ذلِكَ عِنْدَنَا ، وَبَيْنَ الْوَضْعِ وَالاِسْتِعْمَالِ وَاحْتَاجَ إِلى فِقْهٍ في اللُّغَةِ عَزِيزِ الْمَأْخَذِ كَمَا وُضِعَ الأَبْيَضُ بِالْوَضْعِ الْعَامِّ لِكُلِّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ ثُمَّ اخْتُصَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ مِنَ الْخَيْلِ بِالأَشْهَبِ وَمِنَ الإِنْسَانِ بِالأَزْهَرِ وَمِنَ الْغَنَمِ بِالأَمْلَحِ حَتَّى صَارَ اسْتِعْمَالُ الأَبْيَضِ في هَذِهِ كُلِّهَا لَحْناً وَخُرُوجاً عَنْ لِسَانِ الْعَرَبِ . وَاخْتَصَّ بِالتَّأْلِيفِ في هَذَا الْمَنْحَى الثَّعَالِبِيُّ وَأَفْرَدَهُ في كِتَابٍ لَهُ سَمَّاهُ فِقْهَ اللُّغَةِ وَهُوَ مِنْ أَكَدِّ مَا يَأْخُذُ بِهِ اللُّغَوِيُّ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّفَ اسْتِعْمَالَ الْعَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِ . فَلَيْسَ مَعْرِفَةُ الْوَضْعِ الأَوَّلِ بِكَافٍ في التَّرْتِيبِ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ اسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لِذلِكَ . وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلى ذلِكَ الأَدِيبُ في فَنَّي نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ حَذَراً مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لَحْنُهُ في الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ في مُفْرَدَاتِهَا وَتَرَاكِيبِهَا وَهُوَ أَشَدُّ[1] مِنَ اللَّحْنِ في الإِعْرَابِ وَأَفْحَشُ . وَكَذلِكَ أَلَّفَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ في الأَلْفَاظِ

---

(١) وفي نسخة أخرى : أشرّ .

الْمُشْتَرِكَةِ وَتَكَفَّلَ بِحَصْرِهَا وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلى النِّهَايَةِ في ذلِكَ فَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ لِلأَكْثَرِ. وَأَمَّا الْمُخْتَصَرَاتُ الْمَوْجُودَةُ في هَذَا الْفَنِّ الْمَخْصُوصَةُ بِالْمُتَدَاوَلِ مِنَ اللُّغَةِ الْكَثِيرِ الاِسْتِعْمَالِ تَسْهِيلاً لِحِفْظِهَا عَلى الطَّالِبِ فَكَثِيرَةٌ مِثْلَ الأَلْفَاظِ لابْنِ السِّكِّيتِ وَالْفَصِيحِ لِثَعْلَبَ وَغَيْرِهِمَا. وَبَعْضُهَا أَقَلُّ لُغَةً مِنْ بَعْضٍ لاِخْتِلَافِ نَظَرِهِمْ في الأَهَمِّ عَلى الطَّالِبِ لِلْحِفْظِ. وَاللهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

فصل: وَاعْلَمْ أَنَّ النَقْلَ الَّذِي تَثْبُتُ بِهِ اللُّغَةُ، إِنَّمَا هُوَ النَقْلُ عَنِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ اسْتَعْمَلُوا هَذِهِ الأَلْفَاظَ لِهَذِهِ الْمَعَانِي، لَا تَقُلْ إِنَّهُمْ وَضَعُوهَا لأَنَّهُ مُتَعَذِّرٌ وَبَعِيدٌ، وَلَمْ يُعْرَفْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ. وَكَذلِكَ لَا تَثْبُتُ اللُّغَاتُ بِقِيَاسِ مَا لَمْ نَعْلَمْ اسْتِعْمَالَهُ، عَلى مَا عُرِفَ اسْتِعْمَالُهُ فِي مَاءِ الْعِنَبِ، بِاعْتِبَارِ الإِسْكَارِ الْجَامِعِ. لأَنَّ شَهَادَةَ الاِعْتِبَارِ فِي بَابِ الْقِيَاسِ إِنَّمَا يُدْرِكُهَا الشَّرْعُ الدَالُّ عَلى صِحَّةِ الْقِيَاسِ مِنْ أَصْلِهِ. وَلَيْسَ لَنَا مِثْلُهُ فِي اللُّغَةِ إِلاَّ بِالْعَقْلِ، وَهُوَ مُحْكَمٌ، وَعَلى هَذَا جُمْهُورُ الأَئِمَّةِ. وَإِنْ مَالَ إِلى الْقِيَاسِ فِيهَا الْقَاضِي وَابْنُ سُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ. لَكِنَّ الْقَوْلَ بِنَفْيِهِ أَرْجَحُ. وَلَا تَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ إِثْبَاتَ اللُّغَةِ فِي بَابِ الْحُدُودِ اللَّفْظِيَّةِ، لأَنَّ الْحَدَّ رَاجِعٌ إِلى الْمَعَانِي، بِبَيَانِ أَنَّ مَدْلُولَ اللَفْظِ الْمَجْهُولِ الْخَفِيِّ هُوَ مَدْلُولُ الْوَاضِحِ الْمَشْهُورِ، وَاللُّغَةُ إِثْبَاتُ أَنَّ اللَفْظَ كَذَا، لِمَعْنَى كَذَا. وَالْفَرْقُ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ.

علم البيان

هَذَا الْعِلْمُ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ، وَهُوَ مِنَ الْعُلُومِ اللِّسَانِيَّةِ لأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالأَلْفَاظِ وَمَا تُفِيدُهُ. وَيُقْصَدُ بِهَا الدَّلَالَةُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي وَذلِكَ أَنَّ الأُمُورَ الَّتِي يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا إِفَادَةَ السَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ هِيَ: إِمَّا تَصَوُّرُ مُفْرَدَاتٍ تُسْنَدُ وَيُسْنَدُ إِلَيْهَا وَيُفْضِي بَعْضُهَا إِلى بَعْضٍ، وَالدَّالَّةُ عَلى هَذِهِ هِيَ الْمُفْرَدَاتُ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالأَفْعَالِ وَالْحُرُوفِ وَإِمَّا تَمْيِيزُ الْمُسْنَدَاتِ مِنَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهَا وَالأَزْمِنَةِ، وَيُدَلُّ عَلَيْهَا بِتَغَيُّرِ الْحَرَكَاتِ مِنَ الإِعْرَابِ وَأَبْنِيَةِ الْكَلِمَاتِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا هِيَ صِنَاعَةُ

النَّحْوِ . وَيَبْقَى مِنَ الأمُورِ الْمُكْتَنِفَةِ بِالْوَاقِعَاتِ الْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ أَحْوَالُ الْمُتَخَاطِبِينَ أَوِ الْفَاعِلِينَ وَمَا يَقْتَضِيهِ حَالُ الْفِعْلِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلى الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ الإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ الإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ . وَإِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يُخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كَمَالِ الإِعْرَابِ وَالإِبَانَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ (زَيْدٌ جَاءَنِي) مُغَايِرٌ لِقَوْلِهِمْ (جَاءَنِي زَيْدٌ) مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْمُتَقَدِّمَ مِنْهُمَا هُوَ الأَهَمُّ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ : جَاءَنِي زَيْدٌ أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالْمَجِيْءِ قَبْلَ الشَّخْصِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ، وَمَنْ قَالَ : زَيْدٌ جَاءَنِي أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالشَّخْصِ قَبْلَ الْمَجِيْءِ الْمُسْنَدِ . وَكَذَا التَّعْبِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ مُبْهَمٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ . وَكَذَا تَأْكِيدُ الإِسْنَادِ عَلَى الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ : زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْداً قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْداً لَقَائِمٌ مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنِ اسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ الإِعْرَابِ فَإِنَّ الأَوَّلَ الْعَارِيَ عَنِ التَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخَالِيَ الذِّهْنِ وَالثَّانِيَ الْمُؤَكَّدَ بِإِنَّ يُفِيدُ الْمُتَرَدِّدَ وَالثَّالِثَ يُفِيدُ الْمُنْكِرَ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ . وَكَذَلِكَ تَقُولُ : جَاءَنِي الرَّجُلُ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَهُ بِعَيْنِهِ جَاءَنِي رَجُلٌ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ التَّنْكِيرِ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ . ثُمَّ الْجُمْلَةُ الإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَهَا خَارِجٌ تُطَابِقُهُ أَوْ لَا ، وَإِنْشَائِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا . كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ . ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ إِذَا كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الإِعْرَابِ ، فَيُشْرِكُ[1] بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ التَّابِعِ الْمُفْرَدِ نَعْتاً وَتَوْكِيداً وَبَدَلاً بِلَا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ الْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الإِعْرَابِ : ثُمَّ يَقْتَضِي الْمَحَلُّ الإِطْنَابَ وَالإِيجَازَ فَيُورِدُ الْكَلَامَ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ قَدْ يَدُلُّ بِاللَّفْظِ وَلَا يُرَادُ مَنْطُوقُهُ وَيُرَادُ لَازِمُهُ إِنْ كَانَ مُفْرَداً كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ الأَسَدِ الْمَنْطُوقَةَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ اللَّازِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ اسْتِعَارَةً . وَقَدْ تُرِيدُ بِاللَّفْظِ الْمُرَكَّبِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزُومِهِ كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ كَثِيرُ

(١) وفي نسخة أخرى : ينزل .

الرَّمَادِ[1] وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذلِكَ عَنْهُ مِنَ الْجُودِ وَقِرَى الضَّيْفِ لأَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهُمَا فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلى دَلَالَةِ الأَلْفَاظِ مِنَ الْمُفْرَدِ وَالْمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالُ الْوَاقِعَاتِ جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي الأَلْفَاظِ كُلٌّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَقَامُهُ . فَاشْتَمَلَ هَذَا الْعِلْمُ الْمُسَمَّى بِالْبَيَانِ عَلَى الْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَالأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : الصِّنْفُ الأَوَّلُ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الْهَيْآتِ وَالأَحْوَالِ الَّتِي تُطَابِقُ بِاللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضَيَاتِ الْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَلَاغَةِ . وَالصِّنْفُ الثَّانِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى اللَّازِمِ اللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ الاسْتِعَارَةُ وَالْكِنَايَةُ كَمَا قُلْنَاهُ وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَيَانِ . وَأَلْحَقُوا بِهِمَا صِنْفاً آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَزْيِينِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصِلُهُ أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ أَوْ تَوْرِيَةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيهَامِ[2] مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالِ ذلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمَ الْبَدِيعِ . وَأُطْلِقَ عَلَى الأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحْدِثِينَ اسْمُ الْبَيَانِ وَهُوَ اسْمُ الصِّنْفِ الثَّانِي لأَنَّ الأَقْدَمِينَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ . ثُمَّ تَلَاحَقَتْ مَسَائِلُ الْفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَكَتَبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَالْجَاحِظُ وَقُدَامَةُ وَأَمْثَالُهُمْ إِمْلَاءَاتٍ غَيْرَ وَافِيَةٍ فِيهَا . ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ الْفَنِّ تَكْمُلُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ مَحَّصَ[3] السَّكَاكِيُّ زُبْدَتَهُ وَهَذَّبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً مِنَ التَّرْتِيبِ وَأَلَّفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى بِالْمِفْتَاحِ فِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ فَجَعَلَ هَذَا الْفَنَّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ . وَأَخَذَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَلَخَّصُوا مِنْهُ أُمَّهَاتٍ هِيَ الْمُتَدَاوَلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ السَّكَاكِيُّ فِي كِتَابِ التِّبْيَانِ[4] وَابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمِصْبَاحِ وَجَلَالُ الدِّينِ الْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِ الإِيضَاحِ وَالتَّلْخِيصِ وَهُوَ أَصْغَرُ حَجْماً

---

(١) وفي نسخة أخرى : رماد القدور .

(٢) وفي نسخة أخرى : بابهام .

(٣) وفي نسخة أخرى : مخض .

(٤) وفي النسخة الباريسية : البيان .

مِنَ الإيضَاح وَالْعِنَايَةِ بِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ في الشَّرْح وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِه . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمَشَارِقَةُ عَلى هَذَا الْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَالِيٌّ في الْعُلُومِ اللِّسَانِيَّةِ وَالصَّنَائِعُ الْكَمَالِيَّةُ تُوْجَدُ في وُفُورِ الْعُمْرَانِ . وَالْمَشْرِقُ أَوْفَرُ عُمْرَاناً مِنَ الْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . أَوْ نَقُولُ لِعِنَايَةِ الْعَجَمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ كَتَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِيِّ ، وَهُوَ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلى هَذَا الْفَنِّ ، وَهُوَ أَصْلُهُ . وَإِنَّمَا اخْتَصَّ بِأَهْلِ الْمَغْرِبِ مِنَ أَصْنَافِهِ عِلْمُ الْبَدِيعِ خَاصَّةً ، وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ الأَدَبِ الشِّعْرِيَّةِ ، وَفَرَّعُوا لَهُ أَلْقَاباً وَعَدَّدُوا أَبْوَاباً وَنَوَّعُوا أَنْوَاعاً . وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلى ذلِكَ الْوَلُوعُ بِتَزْيِينِ الأَلْفَاظِ ، وَأَنَّ عِلْمَ الْبَدِيعِ سَهْلُ الْمَأْخَذِ . وَصَعُبَتْ عَلَيْهِمْ مَآخِذُ الْبَلاَغَةِ وَالْبَيَانِ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا وَغُمُوضِ مَعَانِيهِمَا فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا . وَمِمَّنْ أَلَّفَ في الْبَدِيعِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ ابْنُ رَشِيقٍ وَكِتَابُ الْعُمْدَةِ لَهُ مَشْهُورٌ . وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ وَالأَنْدَلُسِ عَلى مَنْحَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ في فَهْمِ الإعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ لأَنَّ إِعْجَازَهُ في وَفَاءِ الدَّلاَلَةِ مِنْهُ بِجَمِيعِ مُقْتَضَيَاتِ الأَحْوَالِ مَنْطُوقَةً وَمَفْهُومَةً وَهِيَ أَعْلى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ مَعَ الْكَلاَمِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِالأَلْفَاظِ في انْتِقَائِهَا وَجُودَةِ رَصْفِهَا[1] وَتَرْكِيبِهَا وَهَذَا هُوَ الإعْجَازُ الَّذِي تَقْصُرُ الأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ . وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بَعْضَ الشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيُدْرِكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلى قَدْرِ ذَوْقِهِ . فَلِهَذَا كَانَتْ مَدَارِكُ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلى مَقَاماً في ذلِكَ لأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الْكَلاَمِ وَجَهَابِذَتُهُ وَالذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصَحِّهِ . وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلى هَذَا الْفَنِّ الْمُفَسِّرُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ غُفْلٌ عَنْهُ حَتَّى ظَهَرَ جَارُ اللهِ الزَّمَخْشَرِيُّ وَوَضَعَ كِتَابَهُ في التَّفْسِيرِ وَتَتَبَّعَ آيَ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هَذَا الْفَنِّ بِمَا يُبْدِي الْبَعْضَ مِنْ إِعْجَازِهِ فَانْفَرَدَ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ لَوْلاَ أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ الْبِدَعِ عِنْدَ اقْتِبَاسِهَا مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهِ الْبَلاَغَةِ . وَلأَجْلِ هَذَا يَتَحَامَاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

---

(١) وفي النسخة الباريسية : وضعها .

السُّنَّةِ مَعَ وُفُورِ بِضَاعَتِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ السُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هَذَا الْفَنِّ بَعْضَ الْمُشَارَكَةِ حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى الرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ فَيُعْرِضَ عَنْهَا وَلَا تَضُرُّ فِي مُعْتَقَدِهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلظَّفَرِ بِشَيْءٍ مِنَ الإِعْجَازِ مَعَ السَّلَامَةِ مِنَ الْبِدَعِ وَالأَهْوَاءِ . وَاللهُ الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ .

علم الأدب

هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ اللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ ، وَهِيَ الإِجَادَةُ فِي فَنَّيِ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ ، عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ ، فَيَجْمَعُونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ الْكَلِمَةُ ، مِنْ شِعْرٍ عَالِي الطَّبَقَةِ ، وَسَجْعٍ مُتَسَاوٍ فِي الإِجَادَةِ ، وَمَسَائِلَ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَبْثُوثَةٍ أَثْنَاءَ ذَلِكَ ، مُتَفَرِّقَةٍ ، يَسْتَقْرِي مِنْهَا النَّاظِرُ فِي الْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ ، مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا . وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْمُهِمِّ مِنَ الأَنْسَابِ الشَّهِيرَةِ وَالأَخْبَارِ الْعَامَّةِ . وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى النَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ وَمَنَاحِي بَلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ الْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هَذَا الْفَنِّ قَالُوا ، الأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَالأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ أَوِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونُهَا فَقَطْ وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ . إِذْ لَا مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ بِصِنَاعَةِ الْبَدِيعِ مِنَ التَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِالاصْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَاحْتَاجَ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى مَعْرِفَةِ اصْطِلَاحَاتِ الْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِماً عَلَى فَهْمِهَا . وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ : أَدَبُ الْكُتَّابِ لِابْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ الْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ النَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ

الْقَالِي الْبَغْدَادِيِّ . وَمَا سِوَى هذِهِ الأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنْهَا . وَكُتُبُ الْمُحْدِثِينَ فِي ذلِكَ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ الْغِنَاءُ فِي الصَّدْرِ الأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ الْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ . وَكَانَ الْكُتَّابُ وَالْفُضَلاءُ مِنَ الْخَوَاصِّ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصاً عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ الشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ انْتِحَالُهُ قَادِحاً فِي الْعَدَالَةِ وَالْمُرُوءَةِ . وَقَدْ أَلَّفَ الْقَاضِي أَبُو الْفَرَجِ الأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي الأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ . وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى الْغِنَاءِ فِي الْمِائَةِ صَوْتاً الَّتِي اخْتَارَهَا الْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَاسْتَوْعَبَ فِيهِ ذلِكَ أَتَمَّ اسْتِيعَابٍ وَأَوْفَاهُ . وَلَعَمْرِي إِنَّهُ دِيوَانُ الْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ الْمَحَاسِنِ الَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الشِّعْرِ وَالتَّأْرِيخِ وَالْغِنَاءِ وَسَائِرِ الأَحْوَالِ وَلاَ يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا الأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا وَأَنَّى لَهُ بِهَا . وَنَحْنُ الآنَ نَرْجِعُ بِالتَّحْقِيقِ عَلَى الإِجْمَالِ فِيمَا تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ . وَاللهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ .

الفصل السادس والأربعون

في أن اللغة ملكة صناعية

إِعْلَمْ أَنَّ اللُّغَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِالصِّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي اللِّسَانِ لِلْعِبَارَةِ عَنِ الْمَعَانِي وَجُودَتِهَا وَقُصُورِهَا بِحَسَبِ تَمَامِ الْمَلَكَةِ أَوْ نُقْصَانِهَا . وَلَيْسَ ذلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمُفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّرَاكِيبِ . فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَلَكَةُ التَّامَّةُ فِي تَرْكِيبِ الأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ التَّأْلِيفِ الَّذِي يُطَبِّقُ الْكَلاَمَ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ بَلَغَ الْمُتَكَلِّمُ حِينَئِذٍ الْغَايَةَ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ لِلسَّامِعِ وَهذَا هُوَ مَعْنَى الْبَلاَغَةِ . وَالْمَلَكَاتُ لاَ تَحْصُلُ إِلاَّ بِتَكْرَارِ الأَفْعَالِ لأَنَّ الْفِعْلَ يَقَعُ أَوَّلاً وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةٌ ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالاً . وَمَعْنَى الْحَالِ

أنها صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّكْرَارُ فَتَكُونُ مَلَكَةً أي صِفَةً رَاسِخَةً . فَالْمُتَكَلِّمُ مِن الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَتُهُ[1] اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَوْجُودَةً فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ وَأَسَالِيبَهُمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الصَّبِيُّ اسْتِعْمَالَ الْمُفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلَقَّنُهَا أَوَّلاً ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَاكِيبَ بَعْدَهَا فَيُلَقَّنُهَا كَذَلِكَ . ثُمَّ لَا يَزَالُ سَمَاعُهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَاسْتِعْمَالُهُ يَتَكَرَّرُ إِلَى أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً وَصِفَةً رَاسِخَةً وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ . هَكَذَا تَصَيَّرَتِ الْأَلْسُنُ وَاللُّغَاتُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا الْعَجَمُ وَالْأَطْفَالُ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ لِلْعَرَبِ بِالطَّبْعِ أَيْ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أُخِذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ يَأْخُذُوهَا عَنْ غَيْرِهِمْ . ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُضَرَ بِمُخَالَطَتِهِمُ الْأَعَاجِمَ وَسَبَبُ فَسَادِهَا أَنَّ النَّاشِئَ مِنَ الْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ أُخْرَى غَيْرَ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيُعَبِّرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكَثْرَةِ الْمُخَالِطِينَ لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أَيْضاً فَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ فَاسْتَحْدَثَ مَلَكَةً وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ الْأُولَى . وَهَذَا مَعْنَى فَسَادِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرَيْشٍ أَفْصَحَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنْ بِلَادِ الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ . ثُمَّ مَنِ اكْتَنَفَهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَخُزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ . وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رَبِيعَةَ وَلَخْمٍ وَجُذَامَ وَغَسَّانَ وَإِيَادَ وَقُضَاعَةَ وَعَرَبِ الْيَمَنِ الْمُجَاوِرِينَ لِأُمَمِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ تَامَّةَ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ . وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ الِاحْتِجَاجُ بِلُغَاتِهِمْ فِي الصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

---

(١) الضمير يعود إلى اللغة . وفي النسخة الباريسية ملكة اللغة .

الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وَذلِكَ أنَّا نَجدُهَا في بَيَانِ الْمَقَاصِدِ وَالْوَفاء بِالدَّلاَلَةِ على سُنَنِ اللّسانِ الْمُضرِيِّ وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْهَا إلاَّ دَلاَلَةُ الْحَرَكَاتِ عَلى تَعَيُّنِ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ فَاعْتَاضُوا مِنْهَا بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ وَبِقَرَائِنَ تَدُلُّ على خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ . إلاَّ أنَّ الْبَيَانَ وَالْبَلاَغَةَ في اللّسَانِ الْمُضَرِيِّ أكْثَرُ وَأعْرَقُ ، لأنَّ الألْفَاظَ بِأعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلى الْمَعَانِي بِأعْيَانِهَا . وَيَبْقَى مَا تَقْتَضِيهِ الأحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطَ الْحَالِ مُحْتَاجاً إلى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ . وَكُلُّ مَعْنىً لاَ بُدَّ وَأنْ تَكْتَنِفَهُ أحْوَالٌ تَخُصُّهُ فَيَجِبُ أنْ تُعْتَبَرَ تِلْكَ الأحْوَالُ في تَأدِيَةِ الْمَقْصُودِ لأنَّهَا صِفَاتُهُ وَتِلْكَ الأحْوَالُ في جَمِيعِ الألْسُنِ أكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِألفَاظٍ تَخُصُّهَا بِالْوَضْعِ . وَأمَّا في اللّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَإنَّمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِأحْوَالٍ وَكَيْفِيَّاتٍ في تَرَاكِيبِ الألْفَاظِ وَتَألِيفِهَا مِنْ تَقْدِيمٍ أوْ تَأخِيرٍ أوْ حَذْفٍ أوْ حَرَكَةِ أعْرَابٍ . وَقَدْ يُدَلُّ عَلَيْهَا بِالْحُرُوفِ غَيْرِ الْمُسْتَقِلَّةِ . وَلِذلِكَ تَفَاوَتَتْ طَبَقَاتُ الْكَلاَمِ في اللّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الدَّلاَلَةِ عَلى تِلْكَ الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَكَانَ الْكَلاَمُ الْعَرَبِيُّ لِذلِكَ أوْجَزَ وَأقَلَّ ألْفَاظاً وَعِبَارَةً مِنْ جَمِيعِ الألْسُنِ . وَهذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : « أوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلاَم اخْتِصَاراً » . وَاعْتَبِرْ ذلِكَ بِمَا يُحْكَى عَنْ عِيسَى بْنِ عُمَرَ وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ النُّحَاةِ : « إنِّي أجِدُ في كَلاَمِ الْعَرَبِ تَكْرَاراً في قَوْلِهِمْ : زَيْدٌ قَائِمٌ وَإنَّ زَيْداً قَائِمٌ وَإنَّ زَيْداً لَقَائِمٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ » . فَقَالَ لَهُ : إنَّ مَعَانِيهَا مُخْتَلِفَةٌ . فَالأوَّلُ : لإفَادَة الْخَالِي الذّهْنِ مِنْ قِيَامِ زَيْدٍ ، وَالثَّانِي : لِمَنْ سَمِعَهُ فَتَرَدَّدَ فِيهِ . وَالثَّالِثُ : لِمَنْ عُرِفَ بِالإصْرَارِ عَلى إنْكَارِهِ فَاخْتَلَفَتِ الدَّلاَلَةُ بِاخْتِلاَفِ الأحْوَالِ . وَمَا زَالَتْ هذِهِ الْبَلاَغَةُ وَالْبَيَانُ دَيْدَنَ الْعَرَبِ وَمَذْهَبَهُمْ لِهذَا الْعَهْدِ . وَلاَ تَلْتَفِتَنَّ في ذلِكَ إلى خَرْفَشَةِ النُّحَاةِ أهْلِ صِنَاعَةِ الإعْرَابِ الْقَاصِرَةِ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّحْقِيقِ حَيْثُ يَزْعُمُونَ أنَّ الْبَلاَغَةَ لِهذَا الْعَهْدِ ذَهَبَتْ وَأنَّ

اللّسَانَ الْعَرَبِيّ فَسَدَ اعْتِبَاراً بِمَا وَقَعَ في أَوَاخِرِ الْكَلِمِ مِنْ فَسَادِ الإِعْرَابِ الّذِي يَتَدَارَسُونَ قَوَانِينَهُ . وَهِيَ مَقَالَةٌ دَسَّهَا التَّشَيُّعُ في طِبَاعِهِمْ وَأَلْقَاهَا الْقُصُورُ في أَفْئِدَتِهِمْ وَإِلاّ فَنَحْنُ نَجِدُ الْيَوْمَ الْكَثِيرَ مِنْ أَلْفَاظِ الْعَرَبِ لَمْ تَزَلْ في مَوْضُوعَاتِهَا الأُولَى وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْمَقَاصِدِ وَالتَّعَاوُنُ فِيهِ بِتَفَاوُتِ الإِبَانَةِ مَوْجُودٌ في كَلاَمِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَسَالِيبُ اللّسَانِ وَفُنُونُهُ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ مَوْجُودَةٌ في مُخَاطَبَاتِهِمْ وَفَهْمُ الْخَطِيبِ الْمِصْقَعِ في مَحَافِلِهِمْ وَمَجَامِعِهِمْ وَالشَّاعِرِ الْمُفْلِقِ عَلى أَسَالِيبِ لُغَتِهِمْ . وَالذَّوْقُ الصَّحِيحُ وَالطَّبْعُ السَّلِيمُ شَاهِدَانِ بِذلِكَ . وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْ أَحْوَالِ اللّسَانِ الْمُدَوّنِ إِلاّ حَرَكَاتُ الإِعْرَابِ في أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَقَطْ الّذِي لَزِمَ في لِسَانِ مُضَرَ طَرِيقَةً وَاحِدَةً وَمَهْيَعاً مَعْرُوفاً وَهُوَ الإِعْرَابُ . وَهُوَ بَعْضٌ مِنْ أَحْكَامِ اللّسَانِ . وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِلِسَانِ مُضَرَ لَمَّا فَسَدَ بِمُخَالَطَتِهِمِ الأَعَاجِمَ حِينَ اسْتَوْلَوْا عَلى مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَصَارَتْ مَلَكَتُهُ عَلى غَيْرِ الصُّورَةِ الّتِي كَانَتْ أَوّلاً فَانْقَلَبَ لُغَةً أُخْرَى . وَكَانَ الْقُرْآنُ مُنَزّلاً بِهِ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مَنْقُولاً بِلُغَتِهِ وَهُمَا أَصْلاَ الدّينِ وَالْمِلّةِ فَخُشِيَ تَنَاسِيهِمَا وَانْغِلاَقُ الأَفْهَامِ عَنْهُمَا بِفِقْدَانِ اللّسَانِ الّذِي نُزّلاَ بِهِ فَاحْتِيجَ إِلى تَدْوِينِ أَحْكَامِهِ وَوَضْعِ مَقَايِيسِهِ وَاسْتِنْبَاطِ قَوَانِينِهِ . وَصَارَ عِلْماً ذَا فُصُولٍ وَأَبْوَابٍ وَمُقَدّمَاتٍ وَمَسَائِلَ سَمّاهُ أَهْلُهُ بِعِلْمِ النَّحْوِ وَصِنَاعَةِ الْعَرَبِيّةِ فَأَصْبَحَ فَنّاً مَحْفُوظاً وَعِلْماً مَكْتُوباً وَسُلّماً إِلى فَهْمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَافِياً[1] . وَلَعَلّنَا لَوِ اعْتَنَيْنَا بِهَذَا اللّسَانِ الْعَرَبِيّ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاسْتَقْرَيْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَاضُ عَنِ الْحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيّةِ في دَلاَلَتِهَا بِأُمُورٍ أُخْرَى مَوْجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَانِينُ تَخُصُّهَا . وَلَعَلّهَا تَكُونُ في أَوَاخِرِهِ عَلى غَيْرِ الْمِنْهَاجِ الأَوّلِ في لُغَةِ مُضَرَ فَلَيْسَتِ اللُّغَاتُ وَمَلَكَاتُهَا مَجَاناً . وَلَقَدْ كَانَ اللّسَانُ الْمُضَرِيُّ مَعَ اللّسَانِ الْحِمْيَرِيّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ وَتَغَيّرَ عِنْدَ مُضَرَ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ اللّسَانِ الْحِمْيَرِيّ وَتَصَارِيفِ كَلِمَاتِهِ . تَشْهَدُ بِذلِكَ الأَنْقَالُ الْمَوْجُودَةُ لَدَيْنَا خِلاَفاً لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلى أَنّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَلْتَمِسُ إِجْرَاءَ اللُّغَةِ الْحِمْيَرِيّةِ عَلى

---

(١) وفي نسخة أخرى ، راقيا .

مَقَاييسِ اللُّغَةِ الْمُضَرِيَّةِ وَقَوَانِينِهَا كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُهُمْ في اشْتِقَاقِ الْقَيلِ في اللِّسَانِ الْحِمْيَرِيِّ أَنَّهُ مِنَ الْقَوْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِ هَذَا وَلَيْسَ ذلِكَ بِصَحِيحٍ . وَلُغَةُ حِمْيَرَ لُغَةٌ أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ في الْكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَحَرَكَاتِ إِعْرَابِهَا كَمَا هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرَ إِلاَّ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِلِسَانِ مُضَرَ مِنْ أَجْلِ الشَّرِيعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ حَمَلَ ذلِكَ عَلى الاسْتِنْبَاطِ وَالاسْتِقْرَاءِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَا يَحْمِلُنَا عَلى مِثْلِ ذلِكَ وَيَدْعُونَا إِلَيْهِ . وَمِمَّا وَقَعَ في لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ حَيْثُ كَانُوا مِنَ الأَقْطَارِ شَأْنُهُمْ في النُّطْقِ بِالْقَافِ فَإِنَّهُمْ لاَ يَنْطُقُونَ بِهَا مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ عِنْدَ أَهْلِ الأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ في كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ مِنَ الْحَنَكِ الأَعْلى . وَمَا يَنْطُقُونَ بِهَا أَيْضاً مِنْ مَخْرَجِ الْكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ مَوْضِعِ الْقَافِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْحَنَكِ الأَعْلى كَمَا هِيَ بَلْ يَجِيئُونَ بِهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْكَافِ وَالْقَافِ وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلْجِيلِ أَجْمَعَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَرْبٍ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ ذلِكَ عَلاَمَةً عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ مُخْتَصًّا بِهِمْ لاَ يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ . حَتَّى إِنَّ مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ[1] وَالانْتِسَابَ إِلى الْجِيلِ وَالدُّخُولَ فِيهِ يُحَاكِيهِمْ في النُّطْقِ بِهَا . وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدَّخِيلِ في الْعُرُوبِيَّةِ وَالْحَضَرِيِّ بِالنُّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ . وَيَظْهَرُ بِذلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مضرَ بِعَيْنِهَا فَإِنَّ هَذَا الْجِيلَ الْبَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ شَرْقاً وَغَرْباً في وُلْدِ مَنْصُورِ بْنِ عَكْرِمَةَ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلاَنَ مِنْ سُلَيمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورٍ. وَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الأُمَمِ في الْمَعْمُورِ وَأَغْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَعْقَابِ مُضَرَ وَسَائِرُ الْجِيلِ مَعَهُمْ مِنْ بَنِي كَهْلاَنَ في النُّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ أُسْوَةٌ . وَهَذِهِ اللُّغَةُ لَمْ يَبْتَدِعْهَا هَذَا الْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارِثَةٌ فِيهِمْ مُتَعَاقِبَةٌ وَيَظْهَرُ مِنْ ذلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرَ الأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنِهَا قَدِ ادَّعَى ذلِكَ فُقَهَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ في أُمِّ الْقُرْآنِ « إِهْدِنَا إِلى الصِّرَاطِ

---

(١) وفي نسخة أخرى ، التعرب .

الْمُسْتَقِيمِ » بِغَيْرِ الْقَافِ الَّتِي لِهَذَا الْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا ؟ فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرَ لَمَّا نَزَلُوا الْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنِ الْفَتْحِ . وَأَهْلُ الْجِيلِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ . فَهَذَا يُرَجِّح فِيمَا يُوجَدُ مِنَ اللُّغَةِ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ . هَذَا مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقاً وَغَرْباً فِي النُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الْخَاصِيَّةُ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْعَرَبِيُّ مِنَ الْهَجِينِ وَالْحَضَرِيِّ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْقَافَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ الْبَدَوِيِّ هُوَ مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ عِنْدَ أَوَّلِهِمْ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ ، وَأَنَّ مَخْرَجَ الْقَافِ مُتَّسِعٌ ، فَأَوَّلُهُ مِنْ أَعْلَى الْحَنَكِ وَآخِرُهُ مِمَّا يَلِي الْكَافِ . فَالنُّطْقُ بِهَا مِنْ أَعْلَى الْحَنَكِ هُوَ لُغَةُ الْأَمْصَارِ ، وَالنُّطْقُ بِهَا مِمَّا يَلِي الْكَافَ هِيَ لُغَةُ هَذَا الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ . وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ مَا قَالَهُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ فَسَادِ الصَّلَاةِ بِتَرْكِهَا فِي أُمِّ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ فُقَهَاءَ الْأَمْصَارِ كُلَّهُمْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ . وَبَعِيدٌ أَنْ يَكُونُوا أَهْمَلُوا ذَلِكَ ، فَوَجْهُهُ مَا قُلْنَاهُ . نَعَمْ نَقُولُ إِنَّ الْأَرْجَحَ وَالْأَوْلَى مَا يَنْطِقُ بِهِ أَهْلُ الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ لِأَنَّ تَوَاتُرَهَا فِيهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، شَاهِدٌ بِأَنَّهَا لُغَةُ الْجِيلِ الْأَوَّلِ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ، ﷺ . وَيُرَجِّحُ ذَلِكَ أَيْضاً إِدْغَامُهُمْ لَهَا فِي الْكَافِ لِتَقَارُبِ الْمَخْرَجِينِ . وَلَوْ كَانَتْ كَمَا يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنْ أَصْلِ الْحَنَكِ ، لَمَا كَانَتْ قَرِيبَةَ الْمَخْرَجِ مِنَ الْكَافِ ، وَلَمْ تُدْغَمْ . ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ ذَكَرُوا هَذِهِ الْقَافَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْكَافِ ، وَهِيَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَجَعَلُوهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ مَخْرَجَيِ الْقَافِ وَالْكَافِ . عَلَى أَنَّهَا حَرْفٌ مُسْتَقِلٌّ ، وَهُوَ بَعِيدٌ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مِنْ آخِرِ مَخْرَجِ الْقَافِ لِاتِّسَاعِهِ كَمَا قُلْنَاهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ يُصَرِّحُونَ بِاسْتِهْجَانِهِ وَاسْتِقْبَاحِهِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَصِحَّ عِنْدَهُمْ أَنَّهَا لُغَةُ الْجِيلِ الْأَوَّلِ . وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ إِتِّصَالِ نُطْقِهِمْ بِهَا ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا وَرِثُوهَا مِنْ سَلَفِهِمْ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ ، وَأَنَّهَا شِعَارُهُمُ الْخَاصُّ بِهِمْ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لُغَةُ ذَلِكَ الْجِيلِ الْأَوَّلِ ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ كُلُّهُ . وَقَدْ يَزْعُمُ زَاعِمٌ أَنَّ

هَذِهِ الْقَافُ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الأَمْصَارِ لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ لِلْعَجَمِ ، وَإِنَّهُمْ يَنْطِقُونَ بِهَا كَذلِكَ ، فَلَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ . وَلَكِنَّ الأَقْيَسَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّهُمَا حَرْفٌ وَاحِدٌ مُتَّسِعُ الْمَخْرَجِ . فَتَفَهَّمْ ذلِكَ . وَاللهُ الْهَادِي الْمُبِينُ .

الفصل الثامن والأربعون

في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِعْلَمْ أَنَّ عُرْفَ التَّخَاطُبِ فِي الأَمْصَارِ وَبَيْنَ الْحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةِ مُضَرَ الْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةِ أَهْلِ الْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ وَعَنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لِعَهْدِنَا وَهِيَ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ أَبْعَدُ . فَأَمَّا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ التَّغَايُرِ الَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ النَّحْوِ لَحْناً . وَهِيَ مَعَ ذلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الأَمْصَارِ فِي اصْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مُبَايِنَةٌ بَعْضَ الشَّيْءِ لِلُغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَالإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ . وَهَذَا مَعْنَى اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ . وَفِقْدَانُ الإِعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَاهُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ اللِّسَانِ الأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ فَلأَنَّ الْبُعْدَ عَنِ اللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُخَالَطَةِ الْعُجْمَةِ[1] . فَمَنْ خَالَطَ الْعَجَمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنْ ذلِكَ اللِّسَانِ الأَصْلِيِّ أَبْعَدَ لأَنَّ الْمَلَكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالتَّعْلِيمِ كَمَا قُلْنَاهُ . وَهَذِهِ مَلَكَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنَ الْمَلَكَةِ الأُولَى الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنَ الْمَلَكَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لِلْعَجَمِ . فَعَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعَجَمِ وَيَرْبُونَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ الْمَلَكَةِ الأُولَى . وَاعْتَبِرْ ذلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ . أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ الْعَرَبُ فِيهَا الْبَرَابِرَةَ مِنَ

(١) وفي النسخة الباريسية : لمخالطة العجم .

الْعَجَمِ بِوُفُورِ عُمْرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكَدْ يَخْلُو عَنْهُمْ مِصْرٌ وَلاَ جِيلٌ فَغَلَبَتِ الْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً . وَالْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَهِيَ عَنِ اللِّسَانِ الأَوَّلِ أَبْعَدُ . وَكَذَا الْمَشْرِقُ لَمَّا غَلَبَ الْعَرَبُ عَلَى أُمَمِهِ مِنْ فَارِسَ وَالتُّرْكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي الأَكَرَةِ وَالْفَلاَّحِينَ وَالسَّبْيِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ خَوَلاً وَدَايَاتٍ وَأَظْآراً وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ الْمَلَكَةِ حَتَّى انْقَلَبَتْ لُغَةً أُخْرَى . وَكَذَا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ الْجَلاَلِقَةِ وَالإِفْرَنْجَةِ . وَصَارَ أَهْلُ الأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الأَقَالِيمِ أَهْلَ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةٍ بِهِمْ تُخَالِفُ لُغَةَ مُضَرَ وَيُخَالِفُ أَيْضاً بَعْضُهُمْ بَعْضاً كَمَا نَذْكُرُهُ وَكَأَنَّهُ لُغَةٌ أُخْرَى لِاسْتِحْكَامِ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ .

الفصل التاسع والأربعون

في تعليم اللسان المضري

إِعْلَمْ أَنَّ مَلَكَةَ اللِّسَانِ الْمُضَرِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنِ امْتِزَاجِ الْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ . إِلاَّ أَنَّ اللُّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمْكِناً شَأْنَ سَائِرِ الْمَلَكَاتِ . وَوَجْهُ التَّعْلِيمِ لِمَنْ يَبْتَغِي هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيَرُومُ تَحْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلاَمِهِمِ الْقَدِيمِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلاَمِ السَّلَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي أَسْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ الْمُوَلَّدِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلاَمِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلُقِّنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ . ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنْ

أَسَالِيبِهِمْ وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهِمْ فَتَحْصُلَ لَهُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِهَذَا الْحِفْظِ وَالِاسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوخاً وَقُوَّةً وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الطَّبْعِ وَالتَّفَهُّمِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي التَّرَاكِيبِ وَمُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضَيَاتِ الْأَحْوَالِ. وَالذَّوْقُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَالطَّبْعِ السَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذْكُرُ. وَعَلَى قَدْرِ الْمَحْفُوظِ وَكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ تَكُونُ جَوْدَةُ الْمَقُولِ الْمَصْنُوعِ نَظْماً وَنَثْراً. وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةِ مُضَرَ وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ بِالْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَعَلُّمُهَا. وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

الفصل الخمسون

في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَمَقَايِيسِهَا خَاصَّةً. فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةٍ لَا نَفْسُ كَيْفِيَّةٍ. فَلَيْسَتْ نَفْسَ الْمَلَكَةِ وَإِنَّمَا هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةً مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْماً وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلاً. مِثْلَ أَنْ يَقُولَ بَصِيرٌ بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ لِمَلَكَتِهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا الْخِيَاطَةُ هِيَ أَنْ يُدْخَلَ الْخَيْطُ فِي خَرْتِ الْإِبْرَةِ ثُمَّ يَغْرِزُهَا فِي لِفْقَيِ الثَّوْبِ مُجْتَمِعَيْنِ وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمِقْدَارِ كَذَا ثُمَّ يَرُدُّهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَدَأَتْ وَيُخْرِجُهَا قُدَّامَ مَنْفَذِهَا الْأَوَّلِ بِمَطْرَحِ مَا بَيْنَ الثُّقْبَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتَمَادَى عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي صُورَةَ الْحَبْكِ وَالتَّنْبِيتِ[1] وَالتَّفْتِيحِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا. وَهُوَ إِذَا طُولِبَ أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ شَيْئاً. وَكَذَا لَوْ سُئِلَ عَالِمٌ بِالنِّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ الْخَشَبِ فَيَقُولُ: هُوَ أَنْ تَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى رَأْسِ الْخَشَبَةِ وَتُمْسِكَ بِطَرَفِهِ وَآخَرُ

(١) وفي نسخة أخرى: التنبيت.

قُبالَتكَ مُمسِكٌ بِطرَفِه الآخرِ وتَتَعاقَبانِه بَيْنَكُما وَأَطْرافُهُ المُضَرَّسَةُ المُحَدَّدَةُ تَقْطَعُ ما مَرَّتْ عَلَيْه ذاهِبَةً وَجائِيَةً إلى أنْ يَنْتَهِيَ إلى آخِرِ[1] الخَشَبَةِ . وَهُوَ لَوْ طُولِبَ بِهَذا العَمَلِ أوْ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يُحكِمْهُ . وَهَكَذا العِلْمُ بِقَوانِينِ الإعْرابِ مَعَ هَذِهِ المَلَكَةِ في نَفْسِها فَإنَّ العِلْمَ بِقَوانِينِ الإعْرابِ إنَّما هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ العَمَلِ وَلَيْسَ هُوَ نَفْسَ العَمَلِ . وَلِذلِكَ نَجِدُ كَثِيراً مِنْ جَهابِذَةِ النُّحاةِ وَالمَهَرَةِ في صِناعَةِ العَرَبِيَّةِ المُحيطِينَ عِلْماً بِتِلْكَ القَوانِينِ إذا سُئِلَ في كِتابَةِ سَطْرَيْنِ إلى أخِيهِ أوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أوْ شَكْوَى ظُلامَةٍ أوْ قَصْدٍ مِنْ قُصودِهِ أخْطَأَ فِيها عَنِ الصَّوابِ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يَجِد تأليفَ الكَلامِ لِذلِكَ وَالعِبارَةَ عَنِ المَقْصودِ عَلى أساليبِ اللِّسانِ العَرَبِيِّ . وَكَذا نَجِدُ كَثِيراً مِمَّنْ يُحْسِنُ هَذِهِ المَلَكَةَ وَيُجِيدُ الفَنَّيْنِ مِنَ المَنْظومِ وَالمَنْثورِ وَهُوَ لا يُحْسِنُ إعْرابَ الفاعِلِ مِنَ المَفْعولِ وَلا المَرْفوعِ مِنَ المَجْرورِ وَلا شَيْئاً مِنْ قَوانِينِ صِناعَةِ العَرَبِيَّةِ . فَمِنْ هَذا تَعْلَمُ أنَّ تِلْكَ المَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِناعَةِ العَرَبِيَّةِ وَأَنَّها مُسْتَغْنِيَةٌ عَنْها بِالجُمْلَةِ . وَقَدْ نَجِدُ بَعْضَ المَهَرَةِ في صِناعَةِ الإعْرابِ بَصِيراً بِحالِ هَذِهِ المَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَاتِّفاقِيٌّ وَأَكْثَرُ ما يَقَعُ لِلمُخالِطِينَ لِكِتابِ سِيبَوَيْهِ . فَإنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلى قَوانِينِ الإعْرابِ فَقَطْ بَلْ مَلأَ كِتابَهُ مِنْ أمْثالِ العَرَبِ وَشَواهِدِ أشْعارِهِمْ وَعِباراتِهِمْ فَكانَ فِيهِ جُزْءٌ صالِحٌ مِنْ تَعْلِيمِ هَذِهِ المَلَكَةِ فَتَجِدُ العاكِفَ عَلَيْهِ وَالمُحَصِّلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلى حَظٍّ[2] مِنْ كَلامِ العَرَبِ وَانْدَرَجَ في مَحْفوظِهِ في أماكِنِهِ وَمَفاصِلِ حاجاتِهِ . وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ المَلَكَةِ فاسْتَوْفَى تَعْلِيمَها فَكانَ أبْلَغَ في الإفادَةِ . وَمِنْ هَؤُلاءِ المُخالِطِينَ لِكِتابِ سِيبَوَيْهِ مَنْ يَغْفُلُ عَنِ التَّفَطُّنِ لِهَذا فَيَحْصُلُ عَلى عِلْمِ اللِّسانِ صِناعَةً وَلا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مَلَكَةً . وَأَمّا المُخالِطونَ لِكُتُبِ المُتَأَخِّرِينَ العارِيَةِ عَنْ ذلِكَ إلّا مِنَ القَوانِينِ النَّحْوِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنْ أشْعارِ العَرَبِ وَكَلامِهِمْ ، فَقَلَّ ما يَشْعُرونَ لِذلِكَ بِأَمْرِ هَذِهِ المَلَكَةِ أوْ يَنْتَبِهونَ لِشَأْنِها فَتَجِدُهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ قَدْ

---

(١) وفي النسخة الباريسية : أسفل .

(٢) وفي نسخة أخرى : على خط .

حَصَلُوا عَلى رُتْبَةٍ في لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ . وَأَهْلُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا أَقْرَبُ إِلى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ لِقِيَامِهِمْ فِيهَا عَلى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالتَّفَقُّهِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّرَاكِيبِ فِي مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ فَيَسْبِقُ إِلى الْمُبْتَدِىءِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ التَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ[1] النَّفْسُ لَهَا وَتَسْتَعِدُّ إِلى تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا . وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرَوْا صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى الْعُلُومِ بَحْثاً وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنِ التَّفَقُّهِ فِي تَرَاكِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا إِنْ أَعْرَبُوا شَاهِداً أَوْ رَجَّحُوا مَذْهَباً[2] مِنْ جِهَةِ الاقْتِضَاءِ الذِّهْنِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ مَحَامِلِ اللِّسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ . فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ الْمَنْطِقِ الْعَقْلِيَّةِ أَوِ الْجَدَلِ وَبَعُدَتْ عَنْ مَنَاحِي اللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَأَفَادَ ذلِكَ حَمَلَتَهَا فِي هَذِهِ الأَمْصَارِ وَآفَاقِهَا الْبُعْدُ عَنِ الْمَلَكَةِ بِالْكُلِّيَّةِ . وَكَأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ . وَمَا ذلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيبِهِ وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْمِرَانِ فِي ذلِكَ لِلْمُتَعَلِّمِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا تُفِيدُهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ . وَتِلْكَ الْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلُ لِلتَّعْلِيمِ لكِنَّهُمْ أَجْرَوْهَا عَلى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا عِلْماً بَحْتاً وَبَعُدُوا عَنْ ثَمَرَتِهَا . وَتَعْلَمُ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ الْحِفْظِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ الْمِنْوَالُ الَّذِي نَسَجُوا عَلَيْهِ تَرَاكِيبَهُمْ فَيَنْسِجُ هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ بِذلِكَ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ مَعَهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ عَلى نَحْوِ كَلَامِهِمْ . وَاللهُ مُقَدِّرُ الأُمُورِ كُلِّهَا وَاللهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ .

---

(٢) وفي نسخة أخرى : فتنطبع .

(٣) وفي النسخة الباريسية : معنى .

الفصل الواحد والخمسون

في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل للمستعربين من العجم

إعْلَمْ أنَّ لَفْظَةَ الذَّوْقِ يَتَداوَلُها الْمُعْتَنُونَ بِفُنُونِ الْبَيَانِ وَمَعْنَاهَا حُصُولُ مَلَكَةِ الْبَلَاغَةِ لِلِّسَانِ . وَقَدْ مَرَّ تفسِيرُ الْبَلَاغَةِ وَأَنَّهَا مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَوَاصَّ تَقَعُ لِلتَّرَاكِيبِ في إفَادَةِ ذلِكَ . فَالْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَالْبَلِيغُ فِيهِ يَتَحَرَّى الْهَيْئَةَ الْمُفِيدَةَ لِذلكَ عَلى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ وَأَنْحاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ الْكَلَامَ عَلى ذلِكَ الْوَجْهِ جُهْدَهُ فَإِذَا اتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ[1] بِمُخَالَطَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ في نَظْمِ الْكَلَامِ عَلى ذلِكَ الْوَجْهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ أَمْرُ التَّرْكِيبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَنْحُو فِيهِ غَيْرَ مَنْحَى الْبَلَاغَةِ الَّتِي لِلْعَرَبِ وَإِنْ سَمِعَ تَرْكِيباً غَيْرَ جَارٍ عَلى ذلِكَ الْمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِأَدْنَى فِكْرٍ ، بَلْ وَبِغَيْرِ فِكْرٍ ، إلاَّ بِمَا اسْتَفَادَ مِنْ حُصُولِ هذِهِ الْمَلَكَةِ . فَإِنَّ الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذلِكَ الْمَحَلِّ . وَلِذلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ الْمَلَكَاتِ أَنَّ الصَّوَابَ لِلْعَرَبِ في لُغَتِهِمْ إِعْرَاباً وَبَلَاغَةً أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ . وَيَقُولُ كَانَتِ الْعَرَبُ تَنْطِقُ بِالطَّبْعِ وَلَيْس كَذلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ في نَظْمِ الْكَلَامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ في بَادِىءِ الرَّأْيِ أَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبْعٌ . وَهذِهِ الْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلى السَّمْعِ وَالتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ في ذلِكَ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ اللِّسَانِ فَإِنَّ هذِهِ الْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْماً بِذلِكَ اللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ الْمَلَكَةِ بِالْفِعْلِ في مَحَلِّهَا وَقَدْ مَرَّ ذلِكَ . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذلِكَ فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ في اللِّسَانِ تَهْدِي الْبَلِيغَ إِلى وُجُودِ النَّظْمِ

---

(١) وفي نسخة أخرى : معاناته لذلك .

وَحُسْنِ التَّرْكِيبِ الْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ الْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلاَمِهِمْ . وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ حَيْداً عَنْ هَذِهِ السُّبُلِ الْمُعَيَّنَةِ وَالتَّرَاكِيبِ الْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلاَ وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لأَنَّهُ لاَ يَعْتَادُهُ وَلاَ تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ الرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ . وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ الْكَلاَمُ حَائِداً عَنْ أُسْلُوبِ الْعَرَبِ وَبَلاَغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلاَمِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلاَمِ الْعَرَبِ الَّذِينَ مَارَسَ كَلاَمَهُمْ . وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ الاِحْتِجَاجِ لِذَلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْلاَلٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُفَادَةِ بِالاِسْتِقْرَاءِ . وَهَذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلاَمِ الْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَمِثَالُهُ : لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ الإِعْرَابِ وَالْبَلاَغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا . وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ . وَكَذَلِكَ تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلاَمِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذَلِكَ بِحَيْثُ يَحْصُلُ الْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ[1] . وَالْقَوَانِينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا وَاسْتُعِيرَ لِهَذِهِ الْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ اسْمُ الذَّوْقِ الَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْبَيَانِ وَالذَّوْقِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لإِدْرَاكِ الطُّعُومِ . لَكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ بِالْكَلاَمِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لإِدْرَاكِ الطُّعُومِ اسْتُعِيرَ لَهَا اسْمُهُ . وَأَيْضاً فَهُوَ وِجْدَانِيُّ اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْق . وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الأَعَاجِمَ الدَّاخِلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ إِلَى النُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ لاَ يَحْصُلُ لَهُمْ هَذَا الذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي قَرَّرْنَا أَمْرَهَا لأَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مِصْرٍ بَيْنَهُمْ فِي الْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لأَهْلِ الأَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ . وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : أحيائهم

ذلِكَ مَلَكَةٌ أخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةِ . وَمَنْ عَرَفَ أحْكَامَ تِلْكَ الْمَلَكَةَ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمُسَطَّرَةِ فِي الْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَلَكَةِ في شَيْءٍ . إنَّمَا حَصَّلَ أحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ . وَإنَّمَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالِاعْتِيَادِ وَالتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ . فَإنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أنَّ سِيبَوَيْهِ وَالْفَارِسِيَّ وَالزَّمَخْشَرِيَّ وَأمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ الْكَلَامِ كَانُوا أعْجَاماً مَعَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ لَهُمْ فَاعْلَمْ أنَّ أولَئِكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إنَّمَا كَانُوا عَجَماً في نَسَبِهِمْ فَقَطْ . وَأمَّا الْمَرْبَى وَالنَّشْأةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أهْلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَاسْتَوْلَوا بِذلِكَ مِنَ الْكَلَامِ عَلى غَايَةٍ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا وَكَأنَّهُمْ في أوَّلِ نَشْأتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأوا في أجْيَالِهِمْ حَتَّى أدْرَكُوا كُنْهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أهْلِهَا فَهُمْ وَإنْ كَانُوا عُجْماً في النَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأعْجَام في اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِأنَّهُمْ أدْرَكُوا المِلَّةَ في عُنْفُوَانِهَا وَاللُّغَةَ في شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أهْلِ الْأمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلى الْمُمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوْلَوا عَلى غَايَتِهِ . وَالْيَوْمَ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَجَمِ إذَا خَالَطَ أهْلَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأمْصَارِ فَأوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ الْآثَارِ . وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ إذَا فَرَضْنَا أنَّهُ أقْبَلَ عَلى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأشْعَارِهِمْ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أنَّ الْمَلَكَةَ إذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أخْرَى فِي الْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً . وَإنْ فَرَضْنَا أعْجَمِيًّا فِي النَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إلى تَعَلُّمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْحِفْظِ وَالْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ النُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هَذَا الذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أوْ مُغَالَطَةٌ وَإنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ الْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ . وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ الْمَطْلُوبَةِ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْحَضَرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ الْعُجْمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا اللِّسَانُ عَنْ مَلَكَتِهِ الأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الْحَضَرِ لِهَذَا الْعَهْدِ. وَلِهَذَا نَجِدُ الْمُعَلِّمِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُسَابَقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ. وَتَعْتَقِدُ النُّحَاةُ أَنَّ هَذِهِ الْمُسَابَقَةَ بِصِنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ. نَعَمْ صِنَاعَةُ النَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ الأَمْصَارِ أَعْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنْ لِسَانِ مُضَرَ قَصَّرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْمُضَرِيَّةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهَا لِتَمَكُّنِ الْمُنَافَاةِ[1] حِينَئِذٍ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الأَمْصَارِ. فَأَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ لَمَّا كَانُوا أَعْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامٌّ فِي تَحْصِيلِ مَلَكَتِهِ بِالتَّعْلِيمِ. وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرَّفِيقِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ: يَا أَخِي وَمَنْ لَا عَدِمْتُ فَقْدَهُ أَعْلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَاماً أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقَنَا الْيَوْمَ فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَنَا الْخُرُوجُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ الْكِلَابُ[2] مِنْ أَمْرِ الشَّيْنِ فَقَدْ كَذَّبُوا هَذَا بَاطِلاً لَيْسَ مِنْ هَذَا حَرْفاً وَاحِداً. وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَهَكَذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُمْ فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِيِّ شَبِيهٌ بِمَا ذَكَرْنَا. وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْمَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيقِيَّةَ مِنْ

---

(١) وفي النسخة الباريسية: المكافأة.

(٢) كالب الرجل كلابا، أي عاداه جهاراً (قاموس)

مَشَاهِيرِ الشُّعَرَاء إلاَّ ابْنُ رَشِيقٍ وَابْنُ شَرَفٍ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِيهَا الشُّعَرَاءُ طَارِئِينَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَزَلْ طَبَقَتُهُمْ فِي الْبَلاَغَةِ حَتَّى الآنَ مَائِلَةً إلى الْقُصُورِ . وَأَهْلُ الأَنْدَلُسِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إلى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ مُعَانَاتِهِمْ وَامْتِلاَئِهِمْ مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ اللُّغَوِيَّةِ نَظْماً وَنَثْراً . وَكَانَ فِيهِمْ ابْنُ حَيَّانَ الْمُؤَرِّخُ إمَامُ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَرَافِعُ الرَّايَةِ لَهُمْ فِيهَا وَابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقَسْطَلِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ شُعَرَاء مُلُوكِ الطَّوَائِفِ لِمَا زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ اللِّسَانِ وَالأَدَبِ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ مِئِينَ مِنَ السِّنِينَ حَتَّى كَانَ الانْفِضَاضُ وَالْجَلاَءُ أَيَّامَ تَغَلُّبِ النَّصْرَانِيَّةِ . وَشُغِلُوا عَنْ تَعَلُّمِ ذَلِكَ وَتَنَاقَصَ الْعُمْرَانُ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَقَصُرَتِ الْمَلَكَةُ فِيهِمْ عَنْ شَأْنِهَا حَتَّى بَلَغَتِ الْحَضِيضَ . وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَمَالِكُ بْنُ مُرَحَّلٍ مِنْ تَلاَمِيذِ الطَّبَقَةِ الإشْبِيلِيِّينَ بِسَبْتَةَ وَكُتَّابِ دَوْلَةِ بَنِي الأَحْمَرِ فِي أَوَّلِهَا . وَأَلْقَتِ الأَنْدَلُسُ أَفْلاَذَ كَبِدِهَا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلاَءِ إلى الْعُدْوَةِ لِعُدْوَةِ الإشْبِيلِيَّةِ إلى سَبْتَةَ وَمِنْ شَرْقِيِّ الأَنْدَلُسِ إلى أَفْرِيقِيَّةَ . وَلَمْ يَلْبَثُوا إلى أَنِ انْقَرَضُوا وَانْقَطَعَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ لِعُسْرِ قَبُولِ الْعُدْوَةِ لَهَا وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعِوَجِ أَلْسِنَتِهِمْ وَرُسُوخِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا قُلْنَاهُ . ثُمَّ عَادَتِ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إلى الأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ وَنَجَمَ بِهَا ابْنُ بِشْرِينَ [1] وَابْنُ جَابِرٍ وَابْنُ الْجِيَابِ وَطَبَقَتُهُمْ . ثُمَّ إبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطُّرَيْحِيُّ [2] وَطَبَقَتُهُ وَقَفَاهُمُ ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ بَعْدِهِمِ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ شَهِيداً بِسِعَايَةِ أَعْدَائِهِ . وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ مَلَكَةٌ لاَ تُدْرَكُ وَاتُّبِعَ أَثَرَهُ تِلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَشَأْنُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعْلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ مُعَانَاةِ عُلُومِ اللِّسَانِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ الأَدَبِ وَسَنَدِ تَعْلِيمِهَا . وَلأَنَّ أَهْلَ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ الَّذِينَ تَفْسُدُ مَلَكَتُهُمْ إنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ . وَلَيْسَتْ عُجْمَتُهُمْ أَصْلاً لِلُغَةِ

---

(١) وفي نسخة أخرى : ابن سيرين .

(٢) وفي نسخة أخرى : الطويجن .

أَهْلِ الأَنْدَلُسِ وَالْبَرْبَرِ فِي هَذِهِ الْعُدْوَةِ وَهُمْ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا إلاَّ في الأَمْصَارِ فَقَطْ . وَهُمْ مُنْغَمِسُونَ في بَحْرِعُجْمَتِهِمْ وَرَطَانَتِهِمُ الْبَرْبَرِيَّةِ فَيَصْعُبُ عَلَيْهِمْ تَحْصِيلُ الْمَلَكَةِ اللِّسَانِيَّةِ بِالتَّعْلِيمِ بِخِلاَفِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الأَمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأْنُهُمْ شَأْنَ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ في تَمَامِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَإِجَادَتِهَا لِبُعْدِهِمْ لِذلِكَ الْعَهْدِ عَنِ الأَعَاجِمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ إلاَّ في الْقَلِيلِ . فَكَانَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ في ذلِكَ الْعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ الشُّعَرَاءِ وَالْكُتَّابِ أَوْفَرَ لِتَوَفُّرِ الْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِالْمَشْرِقِ . وَانْظُرْ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الأَغَانِي مِنْ نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ الْعَرَبِ وَدِيوَانُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ وَمِلَّتُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ وَسِيرَتُهُمْ[1] وَآثَارُ خُلَفَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارهمْ وَغِنَاؤُهُمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ لَهُ فَلاَ كِتَابَ أَوْعَبُ مِنْهُ لأَحْوَالِ الْعَرَبِ . وَبَقِيَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ مُسْتَحْكِماً في الْمَشْرِقِ في الدَّوْلَتَيْنِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ كَانَ في الجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ . حَتَّى تَلاَشَى أَمْرُ الْعَرَبِ وَدَرَسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلاَمُهُمْ وَانْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوْلَتُهُمْ وَصَارَ الأَمْرُ لِلأَعَاجِمِ وَالْمُلْكُ في أَيْدِيهِمْ وَالتَّغَلُّبُ لَهُمْ . وَذلِكَ في دَوْلَةِ الدَّيْلَمِ وَالسَّلْجُوقِيَّةِ . وَخَالَطُوا أَهْلَ الأَمْصَارِ وَكَثَّرُوهُمْ فَامْتَلأَتِ الأَرْض بِلُغَاتِهِمْ ، وَاسْتَوْلَتِ الْعُجْمَةُ عَلى أَهْلِ الأَمْصَارِ وَالْحَوَاضِرِ حَتَّى بَعُدُوا عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَلَكَتِهِ وَصَارَ مُتَعَلِّمُهَا مِنْهُمْ مُقَصِّراً عَنْ تَحْصِيلِهَا . وَعَلى ذَلِكَ نَجِدُ لِسَانَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي فَنَّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثِرِينَ مِنْهُ . وَاللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي نسخة أخرى : وسير نبيهم ﷺ

الفصل الثالث والخمسون

في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

إعْلَمْ أنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلاَمَهُمْ عَلى فَنَّيْنِ في الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلاَم الْمَوْزُونُ الْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ . وَفي النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلاَمُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ في الْكَلاَمِ . فَأَمَّا الشِّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالْهِجَاءُ وَالرِّثَاءُ وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ السَّجْعُ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطعاً وَيُلْتَزَمُ في كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعاً وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلاَمُ إِطْلَاقاً وَلاَ يُقطَّعُ أَجْزاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالاً مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلاَ غَيْرِهَا . وَيُسْتَعْمَلُ في الْخُطَبِ وَالدُّعاء وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ . وَأَمَّا الْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلاَّ أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسلاً مُطْلَقاً وَلاَ مُسَجَّعاً . بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاء الْكَلاَمِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يُعَادُ الْكَلاَمُ في الآيَةِ الأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعاً وَلاَ قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » . وَقَالَ : « قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ » . وَيُسَمَّى آخِرُ الآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعاً وَلاَ الْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ في السَّجْعِ وَلاَ هِيَ أَيْضاً قَوَافٍ . وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِي عَلى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتُصَّتْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السَّبْعَ الْمَثَانِي . وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ في تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تُخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلاَ تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الآخَرِ وَلاَ تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالدُّعَاء الْمُخْتَصِّ بِالْخُطَبِ وَالدُّعَاء الْمُخْتَصّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ في الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَة

الْأَسْجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ . وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الْوَزْنِ . وَاسْتَمَرَّ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْكُتَّابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاسْتَعْمَلُوهَا فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الِاسْتِعْمَالَ فِي الْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي ارْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصاً أَهْلَ الْمَشْرِقِ . وَصَارَتِ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكُتَّابِ الْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطِبِ . وَهَذَا الْفَنُّ الْمَنْثُورُ الْمُقَفَّى أَدْخَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ الشِّعْرِ تُنَافِيهَا اللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ الْجِدِّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابِ فِي الْأَوْصَافِ وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ التَّشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذَلِكَ فِي الْخِطَابِ . وَالْتِزَامُ التَّقْفِيَةِ أَيْضاً مِنَ اللَّوْذَعَةِ وَالتَّزْيِينِ وَجَلَالُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَخِطَابُ الْجُمْهُورِ عَنِ الْمُلُوكِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ يُنَافِي ذَلِكَ وَيُبَايِنُهُ . وَالْمَحْمُودُ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ التَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ النَّادِرِ . وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ الْمَلَكَةُ إِرْسَالاً مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ وَاسْتِعَارَةٍ . وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ الشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ الْعَصْرِ إِلَّا اسْتِيلَاءُ الْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ الْكَلَامِ الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَانْفِسَاحِ خُطُوبِهِ[1] . وَوَلِعُوا بِهَذَا الْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ . وَيُجْبِرُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدْرِ مِنَ التَّزْيِينِ بِالْأَسْجَاعِ

(١) وفي نسخة أخرى : خطوته .

وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ[1] وَيَغْفَلُونَ عَمَّا سِوَى ذلِكَ . وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ الْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِالإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذلِكَ الصِّنْفَ مِنَ التَّجْنِيسِ . وَيَدَعُونَ الإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ التَّجْنِيسَ . فَتَأَمَّلْ ذلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل

وَالسَّبَبُ فِي ذلِكَ أَنَّهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّقَتْ[2] إِلَى مَحَلِّهِ مَلَكَةٌ أُخْرَى قَصَّرَتْ بِالْمَحَلِّ عَنْ تَمَامِ الْمَلَكَةِ اللَّاحِقَةِ . لِأَنَّ تَمَامَ[3] الْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَائِعِ الَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ . وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى كَانَتْ مُنَازِعَةً لَهَا فِي الْمَادَّةِ[4] الْقَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنْ سُرْعَةِ الْقَبُولِ فَوَقَعَتِ الْمُنَافَاةُ وَتَعَذَّرَ التَّمَامُ فِي الْمَلَكَةِ وَهذَا مَوْجُودٌ بِهِ فِي الْمَلَكَاتِ الصِّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الإِطْلَاقِ . وَقَدْ بَرْهَنَّا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوٍ مِنْ هذَا الْبُرْهَانِ . فَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي اللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ اللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الصِّنَاعَةِ . وَانْظُرْ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِراً فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَبَداً . فَالْأَعْجَمِيُّ الَّذِي سَبَقَتْ لَهُ اللُّغَةُ الْفَارِسِيَّةُ لَا يَسْتَوْلِي عَلَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِراً فِيهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ . وَكَذَا الْبَرْبَرِيُّ وَالرُّومِيُّ . وَالإِفْرَنْجِيُّ قَلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَداً مِنْهُمْ مُحْكِماً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ

(١) وفي نسخة أخرى : البديعية.

(٢) وفي نسخة أخرى : سبقت .

(٣) وفي نسخة أخرى : قبول .

(٤) وفي نسخة أخرى : في المدة .

الْعَرَبِيّ . وَمَا ذَلِكَ إلاّ لِمَا سَبَقَ إلى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ مَلَكَةِ اللّسَانِ الآخر حتّى إنّ طالِبَ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الأَلْسُنِ إذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللّسَانِ الْعَرَبِيّ جَاءَ مُقَصِّراً في مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَايَةِ وَالتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إلاّ مِنْ قِبَلِ اللّسَانِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الأَلْسُنَ وَاللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَائِعِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لاَ تَزْدَحِمُ . وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إجَادَةٌ في صِنَاعَةٍ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ في أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلى الْغَايَةِ . وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

الفصل الخامس والخمسون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هَذَا الْفَنُّ مِنْ فُنُونِ كَلاَمِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمُسَمّى بِالشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ في سَائِرِ اللُّغَاتِ إلاّ أَنَّنَا الآنَ إنّمَا نَتَكَلَّمُ في الشِّعْرِ الّذِي لِلْعَرَبِ . فَإنْ أَمْكَنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلُ الأَلْسُنِ الأُخْرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلاَمِهِمْ وَإلاّ فَلِكُلّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ في الْبَلاَغَةِ تَخُصُّهُ . وَهُوَ في لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَنْحَى إذْ هُوَ كَلاَمٌ مُفَصَّلٌ قِطَعاً قِطَعاً مُتَسَاوِيَةً في الْوَزْنِ مُتَّحِدَةً في الْحَرْفِ الأَخِيرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ وَتُسَمّى كُلّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتاً وَيُسَمّى الْحَرْفُ الأَخِيرُ الّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيّاً وَقَافِيَةً وَيُسَمّى جُمْلَةُ الْكَلاَمِ إلى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً . وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإفَادَتِهِ في تَرَاكِيبِهِ حَتّى كَأَنَّهُ كَلاَمٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ . وَإذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامّاً في بَابِهِ في مَدْحٍ أَوْ تَشْبِيبٍ[1] أَوْ رِثَاءٍ فَيَحْرِصُ الشّاعِرُ عَلى إعْطَاءِ ذلِكَ الْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ في إفَادَتِهِ . ثُمّ يَسْتَأْنِفُ في الْبَيْتِ الآخِرِ كَلاَماً آخَرَ كَذلِكَ وَيَسْتَطْرِدُ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إلى فَنٍّ وَمِنْ مَقْصُودٍ إلى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوطِّيءَ الْمَقْصُودَ الأَوّلَ وَمَعَانِيَهُ إلى أَنْ يُنَاسِبَ الْمَقْصُودَ الثّانِيَ وَيُبْعِدَ الْكَلاَمَ عَنِ التّنَافُرِ . كَمَا يَسْتَطْرِدُ مِنَ التَّشْبِيبِ[1] إلى الْمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ الْبَيْدَاءِ وَالطُّلُولِ إلى وَصْفِ الرِّكَابِ أَوِ الْخَيْلِ أَوِ

(١) وفي نسخة أخرى : نسيب .

الطَّيْفِ وَمِنْ وَصْفِ الْمَمْدُوحِ إلى وَصْفِ قَوْمِهِ وَعَساكِرِه وَمِنَ التَّفَجُّعِ وَالْعَزاء في الرِّثاء إلى التَّأَثُّر[1] وَأَمْثالِ ذلِكَ . وَيُراعِي فِيهِ اتِّفاقَ الْقَصِيدَةِ كُلِّها في الْوَزْنِ الْواحِدِ حَذَراً مِنْ أَنْ يَتَساهَلَ الطَّبْعُ في الْخُرُوجِ مِنْ وَزْنٍ إلى وَزْنٍ يُقارِبُهُ . فَقَدْ يَخْفى ذلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقارَبَةِ عَلى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ. وَلِهٰذِهِ الْمَوازِينِ شُرُوطٌ وَأَحْكامٌ تَضَمَّنَها عِلْمُ الْعَرُوضِ . وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَّفِقُ في الطَّبْعِ اسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ في هَذا الْفَنِّ وَإِنَّما هِيَ أَوْزانٌ مَخْصُوصَةٌ تُسَمِّيها أَهْلُ تِلْكَ الصِّناعَةِ الْبُحُورَ . وَقَدْ حَصَرُوها في خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْراً بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ في غَيْرِها مِنَ الْمَوازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْماً . وَاعْلَمْ أَنَّ فَنَّ الشِّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلامِ كانَ شَرِيفاً عِنْدَ الْعَرَبِ . وَلِذلِكَ جَعَلُوهُ دِيْوانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبارِهِمْ وَشاهِدَ صَوابِهِمْ وَخَطَئِهِمْ وَأَصْلاً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ في الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحِكَمِهِمْ . وَكانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْنَ الْمَلَكاتِ كُلِّها . وَالْمَلَكاتُ اللِّسانِيَّةُ كُلُّها إِنَّما تُكْتَسَبُ بِالصِّناعَةِ وَالارْتِياضِ في كَلامِهِمْ حَتَّى يَحْصُلَ شِبْهٌ في تِلْكَ الْمَلَكَةِ . وَالشِّعْرُ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْكَلامِ صَعْبُ الْمَأْخَذِ عَلى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسابَ مَلَكَتِهِ بِالصِّناعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلامٌ تامٌّ في مَقْصُودِهِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ ما سِواهُ فَيَحْتاجُ مِنْ أَجْلِ ذلِكَ إلى نَوْعِ تَلَطُّفٍ في تِلْكَ الْمَلَكَةِ حَتَّى يُفْرِغَ الْكَلامَ الشِّعْرِيَّ في قَوالِبِهِ الَّتِي عُرِفَتْ لَهُ في ذلِكَ الْمَنْحَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيُبْرِزَهُ مُسْتَقِلّاً بِنَفْسِهِ . ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ كَذلِكَ ثُمَّ بِبَيْتٍ آخَرَ وَيَسْتَكْمِلُ الْفُنُونَ الْوافِيَةَ بِمَقْصُودِهِ . ثُمَّ يُناسِبُ بَيْنَ الْبُيُوتِ في مُوالاةِ بَعْضِها مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ اخْتِلافِ الْفُنُونِ الَّتِي في الْقَصِيدَةِ . وَلِصُعُوبَةِ مَنْحاهُ وَغَرابَةِ فَنِّهِ كانَ مِحَكّاً لِلْقَرائِحِ في اسْتِجادَةِ أَسالِيبِهِ وَشَحْذِ الأَفْكارِ في تَنْزِيلِ الْكَلامِ في قَوالِبِهِ . وَلا يَكْفِي فِيهِ مَلَكَةُ الْكَلامِ الْعَرَبِيِّ عَلى الإِطْلاقِ بَلْ يَحْتاجُ بِخُصُوصِهِ إلى تَلَطُّفٍ وَمُحاوَلَةٍ في رِعايَةِ الأَسالِيبِ الَّتِي اخْتَصَّتْهُ الْعَرَبُ بِها وَاسْتِعْمالِها فِيهِ . لِنَذْكُرْ هُنا سُلُوكَ[2]

---

(١) وفي نسخة أخرى : التأبين .

(٢) وفي نسخة أخرى : مدلول لفظة .

الأسْلوبِ عِنْدَ أهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَمَا يُريدُونَ بِهَا في إطْلاَقِهِمْ . فَاعْلَمْ أنَّهَا عِبَارَةٌ عِنْدَهُمْ عَنِ الْمِنْوَالِ الَّذي يُنْسَجُ فِيهِ التَّرَاكِيبُ أوِ الْقَالَبِ الَّذي يُفْرَغُ بِهِ . وَلاَ يُرْجَعُ إلى الْكَلاَمِ بِاعْتِبَارِ إفَادَتِهِ أصْلَ[1] الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الإعْرَابِ وَلاَ بِاعْتِبَارِ إفَادَتِهِ كَمَالَ[2] الْمَعْنَى مِنْ خَوَاصِّ التَّرَاكِيبِ الَّذي هُوَ وَظِيفَةُ الْبَلاَغَةِ وَالْبَيَانِ وَلاَ بِاعْتِبَارِ الْوَزْنِ كَمَا اسْتَعْمَلَهُ الْعَرَبُ فِيهِ الَّذي هُوَ وَظِيفَةُ الْعَرُوضِ . فَهَذِهِ الْعُلُومُ الثَّلاَثَةُ خَارِجَةٌ عَنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الشِّعْرِيَّةِ وَإنَّمَا يُرْجَعُ إلى صُورَةٍ ذِهْنِيَّةٍ لِلتَّرَاكِيبِ الْمُنْتَظِمَةِ كُلِّيَّةٍ بِاعْتِبَارِ انْطِبَاقِهَا عَلى تَرْكِيبٍ خَاصٍّ . وَتِلْكَ الصُّورَةُ يَنْتَزِعُهَا الذِّهْنُ مِنْ أعْيَانِ التَّرَاكِيبِ وَأشْخَاصِهَا وَيُصَيِّرُهَا في الْخَيَالِ كَالْقَالَبِ أوِ الْمِنْوَالِ ثُمَّ يَنْتَقِي التَّرَاكِيبَ الصَّحِيحَةَ عِنْدَ الْعَرَبِ بِاعْتِبَارِ الإعْرَابِ وَالْبَيَانِ فَيَرُصُّهَا فِيهِ رَصّاً كَمَا يَفْعَلُهُ الْبَنَّاءُ في الْقَالَبِ أوِ النَّسَّاجُ في الْمِنْوَالِ حَتَّى يَتَّسِعَ الْقَالَبُ بِحُصُولِ التَّرَاكِيبِ الْوَافِيَةِ بِمَقْصُودِ الْكَلاَمِ وَيَقَعَ عَلى الصُّورَةِ الصَّحِيحَةِ بِاعْتِبَارِ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِيهِ فَإنَّ لِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الْكَلاَمِ أسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ وَتُوجَدُ فِيهِ عَلى أنْحَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ فَسُؤَالُ الطُّلُولِ في الشِّعْرِ يَكُونُ بِخِطَابِ الطُّلُولِ كَقَوْلِهِ : « يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ » وَيَكُونُ بِاسْتِدْعَاءِ الصَّحْبِ لِلْوُقُوفِ وَالسُّؤَالِ كَقَوْلِهِ : « قِفَا نَسْألِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أهْلُهَا » . أوْ بِاسْتِبْكَاءِ الصَّحْبِ عَلى الطَّلَلِ كَقَوْلِهِ : « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » . أوْ بِالاِسْتِفْهَامِ عَنِ الْجَوَابِ لِمُخَاطَبٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ كَقَوْلِهِ : « ألَمْ تَسْألْ فَتُخْبِرَكَ الرُّسُومُ » . وَمِثْلَ تَحِيَّةِ الطُّلُولِ بِالأمْرِ لِمُخَاطَبٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ بِتَحِيَّتِهَا كَقَوْلِهِ : « حَيِّ الدِّيَارَ بِجَانِبِ الْغَزَلِ »[3]. أوْ بِالدُّعَاءِ لَهَا بِالسُّقْيَا كَقَوْلِهِ :

أسْقَى طُلُولَهُمُ أجَشُّ هَزِيمُ ... وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نُضْرَةٌ[4] وَنَعِيمُ

أوْ سُؤَالِهِ السُّقْيَا لَهَا مِنَ الْبَرْقِ كَقَوْلِهِ :

---

(١) وفي نسخة أخرى : كمال .

(٢) وفي نسخة أخرى : أصل .

(٣) وفي النسخة الباريسية : حي الدار بجانب العزل .

(٤) وفي النسخة الباريسية : روضة .

يَا بَرْقُ طَالِعْ مَنْزِلاً بِالأَبْرَقِ   وَاحدِ السَّحَابَ لَهَا حِدَاءَ الأَيْنُقِ[1]

أَوْ مِثْلِ التَّفَجُّعِ فِي الْجَزَعِ[2] بِاسْتِدْعَاءِ الْبُكَاءِ كَقَوْلِهِ :

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ   وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

أَوْ بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ كَقَوْلِهِ : « أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي » . أَوْ بِالتَّسْجِيلِ عَلَى الأَكْوَانِ بِالْمُصِيبَةِ لِفَقْدِهِ كَقَوْلِهِ :

مَنَابِتَ الْعِشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ   مَضَى الرَّدَى بِطَوِيلِ الرُّمْحِ وَالْبَاعِ

أَوْ بِالإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنَ الْجَمَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ :

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً   كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيقِهِ[3] بِالرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ :

أَلْقَى الرِّمَاحَ رَبِيعَةُ بْنُ نِزَارِ   أَوْدَى الرَّدَى بِفَرِيقِكَ[4] الْمِغْوَارِ

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ الْكَلَامِ وَمَذَاهِبِهِ . وَتَنْتَظِمُ التَّرَاكِيبُ فِيهِ بِالْجُمَلِ وَغَيْرِ الْجُمَلِ إِنْشَائِيَّةً وَخَبَرِيَّةً ، إِسْمِيَّةً وَفِعْلِيَّةً ، مُتَّفِقَةً ، مَفْصُولَةً وَمَوْصُولَةً ، عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ التَّرَاكِيبِ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الأُخْرَى . يُعَرِّفُكَ فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِالارْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِنَ الْقَالَبِ الْكُلِّيِّ الْمُجَرَّدِ فِي الذِّهْنِ مِنَ التَّرَاكِيبِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي يَنْطَبِقُ ذَلِكَ الْقَالَبُ عَلَى جَمِيعِهَا . فَإِنَّ مُؤَلِّفَ الْكَلَامِ هُوَ كَالْبَنَّاءِ أَوِ النَّسَّاجِ وَالصُّورَةَ الذِّهْنِيَّةَ الْمُنْطَبِقَةَ كَالْقَالَبِ الَّذِي يُبْنَى فِيهِ أَوِ الْمِنْوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ . فَإِنْ خَرَجَ عَنِ الْقَالَبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ

---

(١) وفي نسخة أخرى : الأنيق .

(٢) وفي نسخة أخرى : الرثاء .

(٣) وفي نسخة أخرى : قريعة .

(٤) وفي نسخة أخرى : بقريعك .

الْمِنْوَالِ فِي نَسْجِهِ كَانَ فَاسِداً . وَلاَ تَقُولَنَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ قَوَانِينِ الْبَلاَغَةِ كَافِيَةٌ لِذٰلِكَ لأَنَّا نَقُولُ قَوَانِينُ الْبَلاَغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ عِلْمِيَّةٌ قِيَاسِيَّةٌ تُفِيدُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ التَّرَاكِيبِ عَلى هَيْئَتِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقِيَاسِ . وَهُوَ قِيَاسٌ عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ الْقَوَانِينِ الإِعْرَابِيَّةِ . وَهٰذِهِ الأَسَالِيبُ الَّتِي نَحْنُ نُقَرِّرُهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرْسَخُ فِي النَّفْسِ مِنْ تَتَبُّعِ التَّرَاكِيبِ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ لِجَرَيَانِهَا عَلى اللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتُهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا الْعَمَلَ عَلى مِثَالِهَا وَالاِحْتِذَاءَ بِهَا فِي كُلِّ تَرْكِيبٍ مِنَ الشِّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي الْكَلاَمِ بِإِطْلاَقٍ . وَإِنَّ الْقَوَانِينَ الْعِلْمِيَّةَ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَيَانِ لاَ يُفِيدُ تَعْلِيمَهُ بِوَجْهٍ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصِحُّ فِي قِيَاسِ كَلاَمِ الْعَرَبِ وَقَوَانِينِهِ الْعِلْمِيَّةِ اسْتَعْمَلُوهُ . وَإِنَّمَا الْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ أَنْحَاءٌ مَعْرُوفَةٌ يَطَّلِعُ عَلَيْهَا الْحَافِظُونَ لِكَلاَمِهِمْ تَنْدَرِجُ صُورَتُهَا تَحْتَ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْقِيَاسِيَّةِ . فَإِذَا نُظِرَ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ عَلى هَذَا النَّحْوِ وَبِهٰذِهِ الأَسَالِيبِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي تَصِيرُ كَالْقَوَالِبِ كَانَ نَظَراً فِي الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَاكِيبِهِمْ لاَ فِيمَا يَقْتَضِيهِ الْقِيَاسُ . وَلِهٰذَا قُلْنَا إِنَّ الْمُحَصِّلَ لِهٰذِهِ الْقَوَالِبِ فِي الذِّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلاَمِهِمْ . وَهٰذِهِ الْقَوَالِبُ كَمَا تَكُونُ فِي الْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي الْمَنْثُورِ فَإِنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلُوا كَلاَمَهُمْ فِي كِلاَ الْفَنَّيْنِ وَجَاءُوا بِهِ مُفَصَّلاً فِي النَّوْعَيْنِ . فَفِي الشِّعْرِ بِالْقِطَعِ الْمَوْزُونَةِ وَالْقَوَافِي الْمُقَيَّدَةِ وَاسْتِقْلاَلِ الْكَلاَمِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي الْمَنْثُورِ يَعْتَبِرُونَ الْمُوَازَنَةَ وَالتَّشَابُهَ بَيْنَ الْقِطَعِ غَالِباً وَقَدْ يُقَيِّدُونَهُ بِالأَسْجَاعِ . وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ مَعْرُوفَةٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ . وَالْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يَبْنِي مُؤَلِّفُ الْكَلاَمِ عَلَيْهِ تَأْلِيفَهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ إِلاَّ مَنْ حَفِظَ كَلاَمَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذِهْنِهِ مِنَ الْقَوَالِبِ الْمُعَيَّنَةِ الشَّخْصِيَّةِ قَالَبٌ كُلِّيٌّ مُطْلَقٌ يَحْذُو حَذْوَهُ فِي التَّأْلِيفِ كَمَا يَحْذُو الْبَنَّاءُ عَلى الْقَالَبِ وَالنَّسَّاجُ عَلى الْمِنْوَالِ . فَلِهٰذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيفِ الْكَلاَمِ مُنْفَرِداً عَنْ نَظَرِ النَّحْوِيِّ وَالْبَيَانِيِّ وَالْعَرُوضِيِّ . نَعَمْ إِنَّ مُرَاعَاةَ قَوَانِينِ هٰذِهِ الْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لاَ يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا تَحَصَّلَتْ هٰذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي الْكَلاَمِ اخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لَطِيفٍ فِي هٰذِهِ

الْقَوَالِبِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا أَسَالِيبَ . وَلاَ يُفِيدُهُ إِلاَّ حِفْظُ كَلاَمِ الْعَرَبِ نَظْماً وَنَثْراً . وَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الأَسْلُوبِ مَا هُوَ فَلْنَذْكُرْ بَعْدَهُ حَدّاً أَوْ رَسْماً لِلشِّعْرِ بِهِ تَفْهَمُ[1] حَقِيقَتَهُ عَلَى صُعُوبَةِ هَذَا الْغَرَضِ . فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ . وَقَوْلُ الْعَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلاَمُ الْمَوْزُونُ الْمُقَفَّى لَيْسَ بِحَدٍّ لِهَذَا الشِّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ وَلاَ رَسْمٍ لَهُ . وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ اتِّفَاقُ أَبْيَاتِهِ فِي عَدَدِ الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسَّوَاكِنِ عَلَى التَّوَالِي ، وَمُمَاثَلَةُ عُرُوضِ أَبْيَاتِ الشِّعْرِ لِضَرْبِهَا . وَذَلِكَ نَظَرٌ فِي وَزْنٍ مُجَرَّدٍ عَنِ الأَلْفَاظِ وَدَلاَلَتِهَا . فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ حَدّاً عِنْدَهُمْ ، وَنَحْنُ هُنَا نَنْظُرُ فِي الشِّعْرِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الإِعْرَابِ وَالْبَلاَغَةِ وَالْوَزْنِ وَالْقَوَالِبِ الْخَاصَّةِ . فَلاَ جَرَمَ إِنَّ حَدَّهُمْ ذَلِكَ لاَ يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلاَ بُدَّ مِنْ تَعْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ ، الشِّعْرُ هُوَ الْكَلاَمُ الْبَلِيغُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الاِسْتِعَارَةِ وَالأَوْصَافِ ، الْمُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوَزْنِ وَالرَّوِيِّ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ . فَقَوْلُنَا الْكَلاَمُ الْبَلِيغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمَبْنِيُّ عَلَى الاِسْتِعَارَةِ وَالأَوْصَافِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْغَالِبِ لَيْسَ بِشِعْرٍ وَقَوْلُنَا الْمُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةِ الْوَزْنِ وَالرَّوِيِّ فَصْلٌ لَهُ عَنِ الْكَلاَمِ الْمَنْثُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشِعْرٍ عِنْدَ الْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لأَنَّ الشِّعْرَ لاَ تَكُونُ أَبْيَاتُهُ إِلاَّ كَذَلِكَ وَلَمْ يُفْصَلْ بِهِ شَيْءٌ . وَقَوْلُنَا الْجَارِي عَلَى الأَسَالِيبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرِ مِنْهُ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ[2] الْمَعْرُوفَةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لاَ يَكُونُ شِعْراً إِنَّمَا هُوَ كَلاَمٌ مَنْظُومٌ لأَنَّ الشِّعْرَ لَهُ أَسَالِيبُ تَخُصُّهُ لاَ تَكُونُ لِلْمَنْثُورِ . وَكَذَا أَسَالِيبُ الْمَنْثُورِ لاَ تَكُونُ لِلشِّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلاَمِ مَنْظُوماً وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الأَسَالِيبِ فَلاَ يَكُونُ شِعْراً . وَبِهَذَا الاِعْتِبَارِ كَانَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الأَدَبِيَّةِ

---

(١) وفي نسخة أخرى : يفهمنا .

(٢) وفي نسخة أخرى : الشعر .

يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ الْمُتَنَبِّيءِ وَالْمَعَرِّي لَيْسَ هُوَ مِنَ الشِّعْرِ فِي شَيْءٍ لأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرِيَا عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِيهِ . وَقَوْلُنَا فِي الْحَدِّ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فَصْلٌ لَهُ عَنْ شِعْرِ غَيْرِ الْعَرَبِ مِنَ الأُمَمِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشِّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ . وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لاَ يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ الْجَارِي عَلَى الأَسَالِيبِ الْمَخْصُوصَةِ . وَإِذْ قَدْ فَرَغْنَا مِنَ الْكَلاَمِ عَلَى حَقِيقَةِ الشِّعْرِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى الْكَلاَمِ فِي كَيْفِيَّةِ عَمَلِهِ فَنَقُولُ : إِعْلَمْ أَنَّ لِعَمَلِ الشِّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطاً أَوَّلُهَا : الْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ أَيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ عَلَى مِنْوَالِهَا وَيُتَخَيَّرُ الْمَحْفُوظُ مِنَ الْحُرِّ النَّقِيِّ الْكَثِيرِ الأَسَالِيبِ . وَهٰذَا الْمَحْفُوظُ الْمُخْتَارُ أَقَلُّ مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ الإِسْلاَمِيِّينَ مِثْلِ ابْنِ رَبِيعَةَ وَكُثَيِّرٍ وَذِي الرُّمَّةِ وَجَرِيرٍ وَأَبِي نُوَاسٍ وَحَبِيبٍ وَالْبُحْتُرِيِّ وَالرَّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ . وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابِ الأَغَانِي لأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ كُلَّهُ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَمَنْ كَانَ خَالِياً مِنَ الْمَحْفُوظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ وَلاَ يُعْطِيهِ الرَّوْنَقَ وَالْحَلاَوَةَ إِلاَّ كَثْرَةُ الْمَحْفُوظِ . فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عُدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ . وَاجْتِنَابُ الشِّعْرِ أَوْلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ . ثُمَّ بَعْدَ الإِمْتِلاَءِ مِنَ الْحِفْظِ وَشَحْذِ الْقَرِيحَةِ لِلنَّسْجِ عَلَى الْمِنْوَالِ يُقْبِلُ عَلَى النَّظْمِ وَبِالإِكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتُهُ وَتَرْسَخُ . وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانَ ذٰلِكَ الْمَحْفُوظِ لِتُمْحَى رُسُومُهُ الْحَرْفِيَّةُ الظَّاهِرَةُ إِذْ هِيَ صَادِرَةٌ[1] عَنِ اسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا . فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ الأُسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مِنْوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةً . ثُمَّ لاَ بُدَّ لَهُ مِنَ الْخَلْوَةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالأَزْهَارِ وَكَذَا الْمَسْمُوعُ لاِسْتِنَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمَلاَذِّ السُّرُورِ . ثُمَّ مَعَ هٰذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذٰلِكَ أَجْمَعُ لَهُ وَأَنْشَطُ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذٰلِكَ الْمِنْوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ . قَالُوا : وَخَيْرُ الأَوْقَاتِ لِذٰلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكَرِ عِنْدَ

---

(١) وفي نسخة أخرى : صادة .

الْهُبُوبِ مِنَ النَّوْمِ وَفَرَاغِ الْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ[1] الْجَمَامُ . وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِثِهِ الْعِشْقَ وَالِانْتِشَاءَ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي انْفَرَدَ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَإِعْطَاءِ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ . قَالُوا : فَإِنِ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يُكْرِهْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ . وَلْيَكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْغِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضَهَا وَيَبْنِي الْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعُبَ عَلَيْهِ وَضْعُهَا فِي مَحَلِّهَا . فَرُبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةً قَلِقَةً وَإِذَا سَمَحَ الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ الْخَلَاصِ مِنْهُ بِالتَّنْقِيحِ وَالنَّقْدِ وَلَا يَضِنَّ بِهِ عَلَى التَّرْكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ الْإِجَادَةَ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتُ فِكْرِهِ وَاخْتِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكِيبِ . وَالْخَالِصَ مِنَ الضَّرُورَاتِ اللِّسَانِيَّةِ فَلْيَهْجُرْهَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ . وَقَدْ حَظَرَ أَئِمَّةُ اللِّسَانِ الْمُوَلَّدَ مِنِ ارْتِكَابِ الضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةٍ مِنْهَا بِالْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى مِنَ الْمَلَكَةِ . وَيَجْتَنِبُ أَيْضاً الْمُعَقَّدَ مِنَ التَّرَاكِيبِ جُهْدَهُ . وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى الْفَهْمِ . وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِي فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى الْفَهْمِ . وَإِنَّمَا الْمُخْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ أَلْفَاظُهُ طِبْقاً عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْفَى مِنْهَا . فَإِنْ كَانَتِ الْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَ حَشْواً وَاسْتَعْمَلَ[2] الذِّهْنُ بِالْغَوْصِ عَلَيْهَا فَمَنَعَ الذَّوْقَ عَنِ اسْتِيفَاءِ مُدْرَكِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . وَلَا يَكُونُ الشِّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى الذِّهْنِ . وَلِهَذَا كَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ اللهُ يَعِيبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ[3] بْنِ خَفَاجَةَ شَاعِرِ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ مَعَانِيهِ وَازْدِحَامِهَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعِيبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّيءِ وَالْمَعَرِّي

---

(١) وفي نسخة أخرى : هواء .

(٢) وفي نسخة أخرى : اشتغل .

(٣) قوله أبي بكر وفي نسخة أبي اسحاق الخ .

بِعَدَمِ النَّسْجِ عَلى الأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَاماً مَنْظُوماً نَازِلاً عَنْ طَبَقَةِ الشِّعْرِ وَالْحَاكِمُ بِذلِكَ هُوَ الذَّوْقُ . وَلْيَجْتَنِبِ الشَّاعِرُ أَيْضاً الْحَوشِيَّ مِنَ الأَلْفَاظِ وَالْمُقَصَّرَ[1] وَكَذلِكَ السُّوقِيَّ الْمُبْتَذَلَ بِالتَّدَاوُلِ بِالاِسْتِعْمَالِ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ وَكَذلِكَ الْمَعَانِي الْمُبْتَذَلَةِ بِالشُّهْرَةِ فَإِنَّ الْكَلَامَ يَنْزِلُ بِهَا عَنِ الْبَلَاغَةِ أَيْضاً فَيَصِيرُ مُبْتَذَلاً وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ الإِفَادَةِ كَقَوْلِهِمِ : النَّارُ حَارَّةٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقَنَا . وَبِمِقْدَارِ مَا يَقْرُبُ مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ الإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنْ رُتْبَةِ الْبَلَاغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ . وَلِهَذَا كَانَ الشِّعْرُ فِي الرَّبَّانِيَّاتِ وَالنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ الإِجَادَةِ فِي الْغَالِبِ وَلَا يَحْذِقُ فِيهِ إِلَّا الْفُحُولُ وَفِي الْقَلِيلِ عَلى الْعَشْرِ[2] لِأَنَّ مَعَانِيهَا مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ مُبْتَذَلَةً لِذلِكَ . وَإِذَا تَعَذَّرَ الشِّعْرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيُرَاوِضْهُ وَيُعَاوِدْهُ فَإِنَّ الْقَرِيحَةَ مِثْلُ الضَّرْعِ يَدِرُّ بِالاِمْتِرَاءِ وَيَجِفُّ[3] بِالتَّرْكِ وَالإِهْمَالِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ وَتَعَلُّمُهَا مُسْتَوْفَىً فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لِابْنِ رَشِيقٍ وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرَنَا بِحَسَبِ الْجُهْدِ . وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ ذلِكَ فَعَلَيْهِ بِذلِكَ الْكِتَابِ فَفِيهِ الْبُغْيَةُ مِنْ ذلِكَ . وَهَذِهِ نُبْذَةٌ كَافِيَةٌ وَاللهُ الْمُعِينُ . وَقَدْ نَظَمَ النَّاسُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الشِّعْرِيَّةِ مَا يَجِبُ فِيهَا . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذلِكَ وَأَظُنُّهُ لِابْنِ رَشِيقٍ :

لَعَنَ اللهُ صَنْعَةَ الشِّعْرِ مَاذَا ... مِنْ صُنُوفِ الْجُهَّالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْثِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلى مَا ... كَانَ سَهْلاً لِلسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرَوْنَ الْمُحَالَ مَعْنىً صَحِيحاً ... وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئاً ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْ ... رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمُ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلَامُو ... نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَا
إِنَّمَا الشِّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي النَّظْمِ ... وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُنُونَا

---

(١) وفي نسخة أخرى : المقعر.

(٢) وفي نسخة أخرى : العُشر.

(٣) وفي نسخة أخرى : يغرر.

فأتى بعضُهُ يُشاكِلُ بعضاً · وأقامتْ لهُ الصُّدورُ المُتونا
كُلُّ معْنىً أتاكَ مِنْهُ على ما · تتمنّى ولَمْ يكُنْ أنْ يكُونا
فتناهى مِنَ البَيانِ إلى أنْ · كادَ حُسْناً يَبينُ لِلنّاظِرينا
فكأنَّ الألفاظَ مِنْهُ وُجوهٌ · والمعاني رُكِّبْنَ فيها عُيونا
إنّما في المَرامِ حسْبَ الأماني · يتحلّى بِحُسْنِهِ المُنْشِدونا
فإذا ما مدحْتَ بالشِّعْرِ حُرّاً · رُمْتَ فيهِ مذاهِبَ المُشْتَهينا[1]
فجعلْتَ النَّسيبَ سهْلاً قريباً · وجعلْتَ المَديحَ صِدْقاً مُبينا
وتنكّبْتَ ما يُهجَّنُ في السَّمْعِ · وإنْ كانَ لفْظُهُ مَوْزونا
وإذا ما عرَضْتَهُ[2] بِهِجاءٍ · عِبْتَ فيهِ مذاهِبَ المُرْقِبينا[3]
فجعلْتَ التَّصْريحَ مِنْهُ دَواءً · وجعلْتَ التَّعْريضَ داءً دَفينا
وإذا ما بَكيْتَ فيهِ على الغا · دينَ يوْماً لِلْبَيْنِ والظّاعِنينا
حُلْتَ دونَ الأسى وذلّلْتَ ما كا · نَ مِنَ الدَّمْعِ في العُيونِ مَصونا
ثُمَّ إنْ كُنْتَ عاتِباً جِئْتَ بالوَ · عْدِ وعيداً وبالصُّعوبةِ بِينا[4]
فتركْتَ الَّذي عتبْتَ عليْهِ · حَذِراً آمِناً عزيزاً مَهينا
وأصحُّ القَريضِ ما قارَبَ النَّظْمَ · وإنْ كانَ واضِحاً مُسْتَبينا
فإذا قيلَ أطْمَعَ النّاسَ طُرّاً · وإذا ريمَ أعْجَزَ المُعْجِزينا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم وهو الناشي :

الشِّعْرُ ما قوَّمْتَ ربْعَ صُدورِه · وشدَدْتَ بالتَّهْذيبِ أسَّ مُتونِه
ورأيْتَ بالإطْنابِ شِعْبَ صُدوعِهِ · وفتحْتَ بالإيجازِ عُورَ عُيونِهِ

---

(١) وفي النسخة الباريسية : المسهبينا .
(٢) وفي نسخة أخرى : قرضته .
(٣) وفي النسخة الباريسية : المرفتينا .
(٤) وفي نسخة أخرى : لينا .

وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ وَجَمَعْتَ بَيْنَ مُجِمِّهِ وَمَعِينِهِ
وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جَوَاداً مَاجِداً وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دُيُونِهِ
أَصْفَيْتَهُ (بِتَفَتُّشٍ وَرَضِيتَهُ)[1] وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
فَيَكُونُ جَزْلاً فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ وَيَكُونُ سَهْلاً فِي اتِّفَاقِ فُنُونِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا أَجْرَيْتَ لِلْمَحْزُونِ مَاءَ شُؤُونِهِ[2]
وَإِذَا أَرَدْتَ كِنَايَةً عَنْ رِيبَةٍ بَايَنْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ بِثُبُوتِهِ[3] وَظُنُونِهِ بِيَقِينِهِ
وَإِذَا عَتَبْتَ عَلَى أَخٍ فِي زَلَّةٍ أَدْمَجْتَ شِدَّتَهُ لَهُ فِي لِينِهِ
فَتَرَكْتَهُ مُسْتَأْنِساً بِدَمَاثَةٍ مُسْتَأْمِناً لِوُعُوثِهِ وَحُزُونِهِ .
وَإِذَا نَبَذْتَ إِلَى الَّذِي عَلِقْتَهَا إِذْ صَارَمَتْكَ بِفَاتِنَاتِ شُؤُونِهِ
تَيَّمْتَهَا بِلَطِيفِهِ وَرَقِيقِهِ وَشَغَفْتَهَا بِخَبِيِّهِ وَكَمِينِهِ
وَإِذَا اعْتَذَرْتَ لِسَقْطَةٍ أَسْقَطْتَهَا وَأَشَكْتَ بَيْنَ مُخِيلِهِ وَمُبِينِهِ
فَيَحُولُ ذَنْبُكَ عِنْدَ مَنْ يَعْتَدُّهُ عَتْباً عَلَيْهِ مُطَالِباً بِيَمِينِهِ

الفصل السادس والخمسون

في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

إِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ نَظْماً وَنَثْراً إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاظِ لَا فِي الْمَعَانِي وَإِنَّمَا الْمَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَصْلٌ . فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ

---

(١) وفي نسخة أخرى : بنفيسة ورصينه .

(٢) مجاري الدمع .

(٣) وفي نسخة أخرى : بثنائه .

إنَّمَا يُحَاوِلُهَا في الأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَرْيُهُ عَلى لِسَانِهِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ لَهُ الْمَلَكَةُ في لِسَانِ مُضَرَ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رُبِيَّ عَلَيْهَا في جِبِلِهِ وَيَفرِضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَلِيدٍ نَشَأَ في جَيلِ الْعَرَبِ وَيُلَقَّنُ لُغَتَهُمْ كَمَا يُلَقَّنُهَا الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ في لِسَانِهِمْ . وَذلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ لِلِّسَانِ مَلَكَةً مِنَ الْمَلَكَاتِ في النطْقِ يُحَاوِلُ تَحْصِيلَهَا بِتَكْرَارِهَا عَلى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصُلَ شَأْنَ الْمَلَكَاتِ وَالَّذِي في اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ في الضَّمَائِرِ . وَأَيْضاً فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفي طَوْعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى فَلَا يَحْتَاجُ إِلى تَكَلُّفِ صِنَاعَةٍ في تَأْلِيفِهَا وَتَأْلِيفُ الْكَلَامِ لِلْعِبَارَة عَنْهَا هُوَ الْمُحْتَاجُ لِلصِّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي . فَكَمَا أَنَّ الأَوَانِي الَّتِي يُغْتَرَفُ بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آنِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدَفِ وَالزُّجَاجِ وَالْخَزَفِ وَالْمَاءُ وَاحِدٌ في نَفْسِهِ . وَتَخْتَلِفُ الْجَوْدَةُ في الأَوَانِي الْمَمْلُوَّةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ . كَذَلِكَ جَوْدَةُ اللُّغَةِ وَبَلَاغَتُهَا في الاِسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ الْكَلَامِ في تَأْلِيفِهِ بِاعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلى الْمَقَاصِدِ . وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ في نَفْسِهَا وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيبِهِ عَلى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفِقْدَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . وَاللهُ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

★ ★ ★

الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَثْرَةِ الْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلُّمَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَعَلَى قَدْرِ جُودَةِ الْمَحْفُوظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قِلَّتِهِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَلَكَةِ الْحَاصِلَةِ عَنْهُ لِلْحَافِظِ . فَمَنْ كَانَ مَحْفُوظُهُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ الإِسْلَامِيِّينَ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوِ الْعَتَّابِيِّ أَوِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ أَوِ ابْنِ هَانِىءٍ أَوِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ أَوْ رَسَائِلَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلِ ابْنِ هَارُونَ أَوِ ابْنِ الزَّيَّاتِ أَوِ الْبَدِيعِ أَوِ الصَّابِيءِ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجْوَدَ وَأَعْلَى مَقَاماً وَرُتْبَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ابْنِ سَهْلٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَوِ ابْنِ النَّبِيهِ أَوْ تَرَسُّلَ الْبَيْسَانِيِّ أَوِ الْعِمَادِ الأَصْبَهَانِيِّ لِنُزُولِ طَبَقَةِ هَؤُلَاءِ عَنْ أُولَئِكَ .يَظْهَرُ ذَلِكَ لِلْبَصِيرِ النَّاقِدِ صَاحِبِ الذَّوْقِ . وَعَلَى مِقْدَارِ جُوْدَةِ الْمَحْفُوظِ أَوِ الْمَسْمُوعِ تَكُونُ جُودَةُ الاِسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ الْمَلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِمَا . فَبِارْتِقَاءِ الْمَحْفُوظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ الْكَلَامِ تَرْتَقِي الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لأَنَّ الطَّبْعَ إِنَّمَا يَنْسِجُ عَلَى مِنْوَالِهَا وَتَنْمُو قُوَى الْمَلَكَةِ بِتَغْذِيَتِهَا . وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي جِبِلَّتِهَا وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي الْبَشَرِ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ فِي الإِدْرَاكَاتِ . وَاخْتِلَافُهَا إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ الإِدْرَاكَاتِ وَالْمَلَكَاتِ وَالأَلْوَانِ الَّتِي تُكَيِّفُهَا مِنْ خَارِجٍ . فَبِهَذِهِ يَتِمُّ وُجُودُهَا وَتَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ صُورَتُهَا وَالْمَلَكَاتُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ عَلَى التَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَالْمَلَكَةُ الشِّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ الشِّعْرِ وَمَلَكَةُ الْكِتَابَةِ بِحِفْظِ الأَسْجَاعِ وَالتَّرْسِيلِ ، وَالْعِلْمِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْعُلُومِ وَالإِدْرَاكَاتِ وَالأَبْحَاثِ وَالأَنْظَارِ ، وَالْفِقْهِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْفِقْهِ وَتَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ الْفُرُوعِ عَلَى الأُصُولِ ، وَالتَّصَوُّفِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِالْعِبَادَاتِ وَالأَذْكَارِ وَتَعْطِيلِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ بِالْخَلْوَةِ وَالاِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ مَلَكَةُ الرُّجُوعِ إِلَى حِسِّهِ الْبَاطِنِ وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبَ رَبَّانِيّاً وَكَذَا سَائِرُهَا . وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْنٌ تَتَكَيَّفُ بِهِ

وَعَلى حَسَبِ مَا نَشَأَتْ الْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ في نَفسِهَا فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ الطَّبَقَةِ في جِنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ الْعَالِي في طَبَقَتِهِ مِنَ الْكَلَامِ وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ الْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ في الْبَلَاغَةِ وَمَا ذلِكَ إِلَّا لِمَا يَسْبُقُ إِلى مَحْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِىءُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفِقْهِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ أُسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الطَّبَقَةِ لأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حَظَّ لَهَا في الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذلِكَ الْمَحْفُوظُ إِلى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتِ الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَانْحَرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ في كَلَامِهِمْ . وَهَكَذَا نَجِدُ شِعْرَ الْفُقَهَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالنُّظَّارِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَمْتَلِىءْ مِنْ حِفْظِ النَّقِيِّ الْحُرِّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ رِضْوَانَ كَاتِبُ الْعَلَامَةِ بِالدَّوْلَةِ الْمَرِينِيَّةِ قَالَ : ذَكَرْتُ يَوْماً صَاحِبَنَا أَبَا الْعَبَّاسِ بْنَ شُعَيْبٍ كَاتِبَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَكَانَ الْمُقَدَّمَ في الْبَصَرِ بِاللِّسَانِ لِعَهْدِهِ فَأَنْشَدْتُهُ مَطْلَعَ قَصِيدَةِ ابْنِ النَّحْوِيِّ وَلَمْ أَنْسِبْهَا لَهُ وَهُوَ هَذَا :

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالأَطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالْبَالِي

فَقَالَ لِي عَلى الْبَدِيهَةِ : هَذَا شِعْرُ فَقِيهٍ . فَقُلْتُ لَهُ : وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذلِكَ . فَقَالَ : مِنْ قَوْلِهِ مَا الْفَرْقُ ؟ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ . فَقُلْتُ لَهُ : للهِ أَبُوكَ إِنَّهُ ابْنُ النَّحْوِيِّ . وَأَمَّا الْكُتَّابُ وَالشُّعَرَاءُ فَلَيْسُوا كَذلِكَ لِتَخَيُّرِهِمْ في مَحْفُوظِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ كَلَامَ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ في التَّرَسُّلِ وَانْتِقَائِهِمْ لَهُمُ الْجَيِّدَ مِنَ الْكَلَامِ . ذَاكَرْتُ يَوْماً صَاحِبَنَا أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ الْخَطِيبِ وَزِيرَ الْمُلُوكِ بِالأَنْدَلُسِ مِنْ بَنِي الأَحْمَرِ وَكَانَ الصَّدْرَ الْمُقَدَّمَ في الشِّعْرِ وَالْكِتَابَةِ فَقُلْتُ لَهُ : أَجِدُ اسْتِصْعَاباً عَلَيَّ في نَظْمِ الشِّعْرِ مَتَى رُمْتُهُ مَعَ بَصَرِي بِهِ وَحِفْظِي لِلْجَيِّدِ مِنَ الْكَلَامِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَفُنُونٍ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظِي قَلِيلاً . وَإِنَّمَا أُتِيتُ وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ قِبَلِ مَا حَصَلَ في حِفْظِي مِنَ الأَشْعَارِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ التَّأْلِيفِيَّةِ . فَإِنِّي حَفِظْتُ قَصِيدَتَي الشَّاطِبِيِّ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى في

الْقِرَاءَاتِ فِي الرَّسْمِ وَاسْتَظْهَرْتَهُمَا وَتَدَارَسْتُ كِتَابَي ابْنِ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَالْأُصُولِ وَجُمَلِ الْخُونَجِيِّ فِي الْمَنْطِقِ وَبَعْضَ كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَكَثِيراً مِنْ قَوَانِينِ التَّعْلِيمِ فِي الْمَجَالِسِ فَامْتَلَأَ مَحْفُوظِي مِنْ ذلِكَ وَخُدِشَ وَجْهُ الْمَلَكَةِ الَّتِي اسْتَعْدَدْتُ[1] لَهَا بِالْمَحْفُوظِ الْجَيِّدِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ تُعَاقُ الْقَرِيحَةُ عَنْ بُلُوغِهَا. فَنَظَرَ إِلَيَّ سَاعَةً مُعْجِباً[2] ثُمَّ قَالَ: للهِ أَنْتَ وَهَلْ يَقُولُ هَذَا إِلَّا مِثْلُكَ؟ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ وَمَا تَقَرَّرَ فِيهِ سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ إِعْطَاءُ السَّبَبِ فِي أَنَّ كَلَامَ الإِسْلَامِيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ أَعْلَى طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ وَأَذْوَاقِهَا مِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ. فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ وَعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْحُطَيْئَةِ وَجَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ وَنُصَيْبٍ وَغَيْلَانَ ذِي الرُّمَّةِ وَالْأَحْوَصِ وَبَشَّارٍ ثُمَّ كَلَامَ السَّلَفِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَصَدْراً مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي خُطَبِهِمْ وَتَرْسِيلِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ لِلْمُلُوكِ أَرْفَعَ طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ وَعَنْتَرَةَ وَابْنِ كُلْثُومٍ وَزُهَيْرٍ وَعَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدَةَ وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ وَمِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَالطَّبْعُ السَّلِيمُ وَالذَّوْقُ الصَّحِيحُ شَاهِدَانِ بِذلِكَ لِلنَّاقِدِ الْبَصِيرِ بِالْبَلَاغَةِ. وَالسَّبَبُ فِي ذلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الإِسْلَامَ سَمِعُوا الطَّبَقَةَ الْعَالِيَةَ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ اللَّذَيْنِ عَجِزَ الْبَشَرُ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلَيْهِمَا لِكَوْنِهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَشَأَتْ عَلَى أَسَالِيبِهَا نُفُوسُهُمْ فَنَهَضَتْ طِبَاعُهُمْ وَارْتَقَتْ مَلَكَاتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى مَلَكَاتِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ أَحْسَنَ دِيبَاجَةً وَأَصْفَى رَوْنَقاً مِنْ أُولئِكَ وَأَرْصَفَ مَبْنًى وَأَعْدَلَ تَثْقِيفاً بِمَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَالِي الطَّبَقَةِ. وَتَأَمَّلْ ذلِكَ يَشْهَدْ لَكَ بِهِ ذَوْقُكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْبَصَرِ بِالْبَلَاغَةِ. وَلَقَدْ سَأَلْتُ يَوْماً شَيْخَنَا الشَّرِيفَ أَبَا الْقَاسِمِ قَاضِي غِرْنَاطَةَ لِعَهْدِنَا وَكَانَ شَيْخَ هذِهِ الصِّنَاعَةِ أَخَذَ بِسَبْتَةَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ مَشْيَخَتِهَا مِنْ

---

(١) وفي نسخة أخرى: استدعيت.

(٢) وفي نسخة أخرى: متعجبا.

تَلَامِيذِ الشَّلُوبِينِ وَاسْتَبْحَرَ في عِلْمِ اللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ فِيهِ فَسَأَلْتُهُ يَوْماً مَا بَالُ الْعَرَبِ الإِسْلَامِيِّينَ أَعْلَى طَبَقَةً في الْبَلَاغَةِ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ ؟ وَلَمْ يَكُنْ لِيَسْتَنْكِرَ ذلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ لِي ، وَاللهِ مَا أَدْرِي ، فَقُلْتُ ، أَعْرِضُ عَلَيْكَ شَيْئاً ظَهَرَ لِي في ذلِكَ وَلَعَلَّهُ السَّبَبُ فِيهِ . وَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُعْجَباً ثُمَّ قَالَ لِي ، يَا فَقِيهُ هَذَا كَلَامٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ . وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا يُؤْثِرُ مَحَلِّي وَيُصِيخُ في مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِالنَّبَاهَةِ في الْعُلُومِ ، وَاللهُ خَلَقَ الإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ .

الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيف جودة المصنوع أو قصوره

إِعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي هُوَ الْعِبَارَةُ وَالْخِطَابُ ، إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ في إِفَادَةِ الْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلاً فَهُوَ كَالْمَوَاتِ الَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ . وَكَمَالُ الإِفَادَةِ هُوَ الْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَانِ لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ هِيَ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ ، وَمَعْرِفَةُ الشُّرُوطِ وَالأَحْكَامِ الَّتِي بِهَا تُطَابِقُ التَّرَاكِيبُ اللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى الْحَالِ ، هُوَ فَنُّ الْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ الشُّرُوطُ وَالأَحْكَامُ لِلتَّرَاكِيبِ في الْمُطَابَقَةِ اسْتُقْرِيَتْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَصَارَتْ كَالْقَوَانِينِ . فَالتَّرَاكِيبُ بِوَضْعِهَا تُفِيدُ الإِسْنَادَ بَيْنَ الْمُسْنَدَيْنِ ، بِشُرُوطٍ وَأَحْكَامٍ هِيَ جُلُّ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ . وَأَحْوَالُ هَذِهِ التَّرَاكِيبِ مِنْ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ ، وَتَعْرِيفٍ وَتَنْكِيرٍ ، وَإِضْمَارٍ وَإِظْهَارٍ ، وَتَقْيِيدٍ وَإِطْلَاقٍ وَغَيْرِهَا ، يُفِيدُ الأَحْكَامَ الْمُكْتَنِفَةَ مِنْ خَارِجٍ بِالإِسْنَادِ ، وَبِالْمُتَخَاطِبِينَ حَالَ التَّخَاطُبِ بِشُرُوطٍ وَأَحْكَامٍ هِيَ قَوَانِينُ لِفَنٍّ ، يُسَمُّونَهُ عِلْمَ الْمَعَانِي مِنْ فُنُونِ

الْبلَاغَةِ . فَتَنْدَرِجُ قَوَانِينُ الْعَرَبِيَّةِ لِذلِكَ فِي قَوَانِينِ عِلْمِ الْمَعَانِي لأَنَّ إِفَادَتَهَا الإِسْنَادُ جِزْءٌ مِنْ إِفَادَتِهَا لِلأَحْوَالِ الْمُكْتَنِفَةِ بِالإِسْنَادِ . وَمَا قَصُرَ مِنْ هَذِهِ التَرَاكِيبِ عَنْ إِفَادَةِ مُقْتَضَى الْحَالِ لِخَلَلٍ فِي قَوَانِينِ الإِعْرَابِ أَوْ قَوَانِينِ الْمَعَانِي كَانَ قَاصِراً عَنِ الْمطَابَقَةِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ ، وَلَحِقَ بِالْمُهْمَلِ الَّذِي هُوَ فِي عِدَادِ الْمَوَاتِ .

ثُمَّ يَتْبَعُ هَذِهِ الإِفَادَةَ لِمُقْتَضَى الْحَالِ التَفَنُّنِ فِي انْتِقَالِ التَرْكِيبِ بَيْنَ الْمَعَانِي بِأَصْنَافِ الدَلَالَاتِ ، لأَنَّ التَرْكِيبَ يَدُلُّ بِالْوَضْعِ عَلى مَعْنَى ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ الذِّهْنُ إِلى لَازِمِهِ أَوْ مَلْزُومِهِ أَوْ شَبَهِهِ ، فَيَكُونُ فِيهَا مَجَازاً ، إِمَّا بِاسْتِعَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ، وَيَحْصَلُ لِلْفِكْرِ بِذلِكَ الانْتِقَالِ لَذَّةٌ كَمَا تَحْصَلُ فِي الإِفَادَةِ وَأَشَدُ . لأَنَّ فِي جَمِيعِهَا ظَفَرٌ بِالْمَدْلُولِ مِنْ دَلِيلِهِ . وَالظَّفَرُ مِنْ أَسْبَابِ اللَّذَةِ كَمَا عَلِمْتَ . ثُمَّ لِهَذِهِ الإِنْتِقَالَاتِ أَيْضاً شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ كَالْقَوَانِينِ صَيَّرُوهَا صِنَاعَةً ، وَسَمُّوهَا بِالْبَيَانِ . وَهِيَ شَقِيقَةُ عِلْمِ الْمَعَانِي الْمُفِيدُ لِمُقْتَضَى الْحَالِ ، لأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلى مَعَانِي التَرَاكِيبِ وَمَدْلُولَاتِهَا . وَقَوَانِينُ عِلْمِ الْمَعَانِي رَاجِعَةٌ إِلى أَحْوَالِ التَرَاكِيبِ أَنْفُسِهَا مِنْ حَيْثُ الدَلَالَةُ . وَاللَّفْظُ وَالْمَعْنَى مُتَلَازِمَانِ مُتَضَايِقَانِ كَمَا عَلِمْتَ . فَإِذاً عِلْمُ الْمَعَانِي وَعِلْمُ الْبَيَانِ هُمَا جِزْءُ الْبَلَاغَةِ ، وَبِهِمَا كَمَالُ الإِفَادَةِ ، فَهُوَ مُقَصِّرٌ عَنِ الْبَلَاغَةِ وَيَلْتَحِقُ عِنْدَ الْبُلَغَاءِ بِأَصْوَاتِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ وَأَجْدَرُ بِهِ أَنْ لَا يَكُونَ عَرَبِياً ، لأَنَّ الْعَرَبِيَّ هُوَ الَّذِي يُطَابِقُ بِإِفَادَتِهِ مُقْتَضَى الْحَالِ . فَالْبَلَاغَةُ عَلى هَذَا هِيَ أَصْلُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ .

ثُمَّ إِعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ، « الْكَلَامُ الْمَطْبُوعُ » فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ الْكَلَامَ الَّذِي كَمُلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ ، لأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ ، لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ النُطْقَ فَقَطْ . بَلِ الْمُتَكَلِّمُ يُقْصَدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً ، وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً . ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ السَجِيَّةِ الَّتِي لَهُ بِالأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ التَحْسِينِ وَالتَزْيِينِ ، بَعْدَ كَمَالِ الإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ الْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ الأَسْجَاعِ ، وَالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ حَمْلِ الْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ

بِالأَقْسَامِ الْمُخْتَلِفَةِ الأَحْكَامِ وَالتَوْرِيَةِ بِاللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ عَنِ الْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيه ، وَالْمُطَابَقَةُ بَيْنَ الْمُتَضَادَّاتِ ، لِيَقَعَ التَجَانُسُ بَيْنَ الأَلفاظ وَالْمَعَانِي ، فَيَحْصُلُ لِلْكَلاَمِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي الأَسْمَاعِ وَحَلاَوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلى الإِفَادَةِ .

وَهَذِهِ الصَنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي الْكَلاَمِ الْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعِ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلَ : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى » ، وَمِثْلَ : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » ، إِلى آخِرِ التَقْسِيمِ فِي الآيَةِ . وَكَذَا : « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » إِلى آخِرِ الآيَةِ . وَكَذَا : « هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » . وَأَمْثَالِهِ كَثِيرٌ . وَذلِكَ بَعْدَ كَمَالِ الإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هَذِهِ التَرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هَذَا الْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلاَمِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ ، لَكِنْ عَفْواً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلاَ تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْر .

وَأَمَّا الإِسْلاَمِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْواً وَقَصْداً ، وَأَتَوْا مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَالْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ . فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِالصَنْعَةِ ، وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِالْعَجَبِ . وَقِيلَ ا نَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْد وَابْنُ هِرْمَة ، وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِه فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اتَّبَعَهُمَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ وَالْعَتَابِي وَمَنْصُورٌ النَمَيْرِيّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو نَوَاس . وَجَاءَ عَلى آثَارِهِمْ حَبِيبُ وَالْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ابْنُ الْمُعْتَزّ فَخَتَمَ عَلى الْبَدِيعِ وَالصِّنَاعَةِ أَجْمَعْ . وَلْنَذْكُرْ مِثَالاً مِنَ الْمَطْبُوعِ الْخَالِي مِنَ الصِّنَاعَةِ ، مِثْلُ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ ذَرِيح :

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي ... أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ فِي السِرِّ خَالِيا

وَقَوْلُ كُثَيِّر :

وَإِنِّي وَتَهْيَامِي بِعزَّةَ بَعْدَمَا ... تَخَلَّيتُ عَمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّتْ
لَكَالْمُرْتَجِي ظِلَّ الْغَمَامَةِ كُلَّمَا ... تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلَّتْ

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَطْبُوعَ ، الْفَقِيدَ الصَنْعَةِ ، في إِحْكَامِ تَأْلِيفِهِ وَثَقَافَةِ تَرْكِيبُهُ . فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ الصَنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هَذَا الأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْناً .

وَأَمَّا الْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ، ثُمَّ حَبِيبٌ وَطَبَقَتُهُمَا ، ثُمَّ ابْنُ الْمُعْتَزِّ خَاتَمُ الصَنْعَةِ الَّذِي جَرَى الْمُتَأَخِّرُونَ بَعْدَهُمْ في مَيْدَانِهِمْ ، وَنَسَجُوا على مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هَذِهِ الصَنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَاخْتَلَفَتْ اصْطِلاَحَاتُهُمْ في أَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً في الْبَلاَغَةِ على أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ في الإِفَادَةِ ، وَأَنَّهَا هِيَ تُعْطِي التَحْسِينَ وَالرَّوْنَقَ . وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَدِيعِ ، فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ الْبَلاَغَةِ . وَلِذَلِكَ يَذْكُرُونَها في الْفُنُونِ الأَدَبِيَّةِ الَّتِي لاَ مَوْضُوعَ لَهَا . وَهُوَ رَأْيُ ابْنُ رَشِيقٍ في كِتَابِ الْعُمْدَةِ لَهُ ، وَأُدَبَاءُ الأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا في اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الصَنْعَةِ شُرُوطاً ، مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلاَ اكْتِرَاثٍ في مَا يَقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا الْعَفْوُ فَلاَ كَلاَمَ فِيهِ لأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ التَكَلُّفِ سَلِمَ الْكَلاَمُ مِنْ عَيْبِ الاسْتِهْجَانِ ، لأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتِهَا يَصِيرُ إلى الْغَفْلَةِ عَنِ التَرَاكِيبِ الأَصْلِيَّةِ لِلْكَلاَمِ ، فَتُخِلُّ بِالإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا ، وَتُذْهِبُ بِالْبَلاَغَةِ رَأْساً . وَلاَ يَبْقَى في الْكَلاَمِ إِلاَّ تِلْكَ التَحْسِينَاتِ ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ الْيَوْمَ عَلى أَهْلِ الْعَصْرِ . وَأَصْحَابُ الأَذْوَاقِ في الْبَلاَغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهَذِهِ الْفُنُونِ ، وَيَعُدُّونَ ذَلِكَ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ . وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الأُسْتَاذَ أَبَا الْبَرَكَاتِ الْبَلْفِيقِيَّ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ في اللِّسَانِ وَالْقَرِيحَةِ في ذَوْقِهِ يَقُولُ ، إِنَّ مِنْ أَشْهَى مَا تَقْتَرِحُهُ عَلَيَّ نَفْسِي أَنْ أُشَاهِدَ في بَعْضِ الأَيَامِ مَنْ يَنْتَحِلُ فُنُونَ هَذَا الْبَدِيعِ في نَظْمِهِ أَوْ نَثْرِهِ ، وَقَدْ عُوقِبَ بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ ، يُحَذِّرُ بِذَلِكَ تِلْمِيذَهُ أَنْ يَتَعَاطُوا هَذِهِ الصَنْعَةِ ، فَيُكَلَّفُونَ بِهَا ، وَيَتَنَاسُونَ الْبَلاَغَةَ . ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ اسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ الإِقْلاَلُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ في بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ مِنَ الْقَصِيدِ ، فَتَكْفِي في زِينَةِ الشِعْرِ وَرَوْنَقِهِ . وَالإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ ، قَالَهُ ابْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ . وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو الْقَاسِمِ الشَرِيفُ السَبْتِيُّ مُنْفِقُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ ، هَذِهِ الْفُنُونُ الْبَدِيعِيَّةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا ، لأَنَّهَا مِنْ

مُحسِّنَاتِ الْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِه ، فَهِيَ بِمَثَابَةِ الْخِيلَانِ فِي الْوَجْهِ يَحْسُنُ بِالْوَاحِدِ وَالإِثْنَيْنِ مِنْهَا ، وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا . وَعَلَى نِسْبَةِ الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ هُوَ الْكَلَامُ الْمَنْثُورُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلَامِ . كَانَ أَوَّلاً مُرْسَلاً مُعْتَبَرُ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ ، شَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ ، مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا اكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ . حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ الصَّابِي كَاتِبُ بَنِي بُوَيْه ، فَتَعَاطَى الصَّنْعَةَ وَالتَّقْفِيَةَ وَأَتَى بِذَلِكَ بِالْعَجَبِ . وَعَابَ النَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذَلِكَ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ . وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ الْعُجْمَةِ وَالْبُعْدِ عَنِ صَوْلَةِ الْخِلَافَةِ الْمُنْفِقَةِ لِسُوقِ الْبَلَاغَةِ . ثُمَّ انْتَشَرَتِ الصِّنَاعَةُ بَعْدَهُ فِي مَنْثُورِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ التَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ السُّلْطَانِيَّاتِ وَالإِخْوَانِيَّاتِ وَالْعَرَبِيَّاتِ بِالسُّوقِيَّاتِ . وَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ . وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ الْمَصْنُوعَ بِالْمُعَانَاةِ وَالتَّكْلِيفِ ، قَاصِرٌ عَنِ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ ، لِقِلَّةِ الإِكْتِرَاثِ فِيهِ بِأَصْلِ الْبَلَاغَةِ ، وَالْحَاكِمُ فِي ذَلِكَ الذَّوْقِ . وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَعَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

الفصل التاسع والخمسون

في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

إِعْلَمْ أَنَّ الشِّعْرَ كَانَ دِيْوَاناً لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحِكَمُهُمْ . وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْعَرَبِ مُنَافِسِينَ[١] فِيهِ وَكَانُوا يَقِفُونَ بِسُوقِ عُكَاظَ لِإِنْشَادِهِ وَعَرْضِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دِيبَاجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّأْنِ وَأَهْلِ الْبَصَرِ لِتَمْيِيزِ حَوْلِهِ . حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْمُنَاغَاةِ فِي تَعْلِيقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَوْضِعِ حَجِّهِمْ وَبَيْتِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ امْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ حُجْرٍ وَالنَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ وَطَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبَدَةَ وَالأَعْشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ[٢] . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَعْلِيقِ الشِّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ

(١) وفي نسخة أخرى : متنافسين .

(٢) وفي النسخة الباريسية : التسع .

عَلى ذلِكَ بقَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَمَكَانِهِ فِي مُضَرَ عَلى مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمُعَلَّقَاتِ . ثُمَّ انْصَرَفَ الْعَرَبُ عَنْ ذلِكَ أَوَّلَ الإِسْلَامِ بِمَا شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَمَا أَدْهَشَهُمْ مِنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ فَأَخْرَسُوا عَنْ ذلِكَ وَسَكَتُوا عَنِ الْخَوْضِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ زَمَاناً . ثُمَّ اسْتَقَرَّ ذلِكَ وَأُونِسَ الرُّشْدُ مِنَ الْمِلَّةِ . وَلَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ الشِّعْرِ وَحَظْرِهِ وَسَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَثَابَ عَلَيْهِ ، فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلى دِيْدَنِهِمْ مِنْهُ . وَكَانَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ كَبِيرِ قُرَيْشٍ لِذلِكَ الْعَهْدِ مَقَامَاتٌ فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مُرْتَفِعَةٌ وَكَانَ كَثِيراً مَا يَعْرِضُ شِعْرَهُ عَلى ابْنِ عَبَّاسٍ فَيَقِفُ لِاسْتِمَاعِهِ مُعْجَباً بِهِ . ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ الْمُلْكُ الْفَحْلُ وَالدَّوْلَةُ الْعَزِيزَةُ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمِ الْعَرَبُ بِأَشْعَارِهِمْ يَمْتَدِحُونَهُمْ بِهَا . وَيُجِيزُهُمُ الْخُلَفَاءُ بِأَعْظَمِ الْجَوَائِزِ عَلى نِسْبَةِ الْجَوْدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَحْرِصُونَ عَلى اسْتِهْدَاءِ أَشْعَارِهِمْ يَطَّلِعُونَ مِنْهَا عَلى الآثَارِ وَالأَخْبَارِ وَاللُّغَةِ وَشَرَفِ اللِّسَانِ . وَالْعَرَبُ يُطَالِبُونَ وُلْدَهُمْ بِحِفْظِهَا . وَلَمْ يَزَلْ هذَا الشَّأْنُ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ وَصَدْراً مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ . وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ الْعِقْدِ فِي مُسَامَرَةِ الرَّشِيدِ لِلأَصْمَعِيِّ فِي بَابِ الشِّعْرِ وَالشُّعَرَاءِ تَجِدْ مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّشِيدُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِذلِكَ وَالرُّسُوخِ فِيهِ وَالْعِنَايَةِ بِانْتِحَالِهِ وَالتَّبَصُّرِ بِجَيِّدِ الْكَلَامِ وَرَدِيئِهِ وَكَثْرَةِ مَحْفُوظِهِ مِنْهُ . ثُمَّ جَاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ اللِّسَانُ لِسَانَهُمْ مِنْ أَجْلِ الْعُجْمَةِ وَتَقْصِيرِهَا بِاللِّسَانِ وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوهُ صِنَاعَةً ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أُمَرَاءَ الْعَجَمِ الَّذِينَ لَيْسَ اللِّسَانُ لَهُمْ طَالِبِينَ مَعْرُوفَهُمْ فَقَطْ لَا سِوَى ذلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبٌ وَالْبُحْتُرِيُّ وَالْمُتَنَبِّيءُ وَابْنُ هَانِيءٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرًّا . فَصَارَ غَرَضُ الشِّعْرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ الْكَذِبُ[1] وَالِاسْتِجْدَاءُ لِذَهَابِ الْمَنَافِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ لِلأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً . وَأَنِفَ مِنْهُ لِذلِكَ أَهْلُ الْهِمَمِ وَالْمَرَاتِبِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَتَغَيَّرَ الْحَالُ وَأَصْبَحَ تَعَاطِيهِ هُجْنَةً فِي الرِّئَاسَةِ وَمَذَمَّةً لِأَهْلِ الْمَنَاصِبِ الْكَبِيرَةِ . وَاللهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

---

(١) وفي نسخة أخرى : للكدية .

الفصل الستون

في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

إعْلَمْ أنَّ الشِّعْرَ لَا يَخْتَصُّ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَقَطْ بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ لُغَةٍ سَوَاءٌ كَانَتْ عَرَبِيَّةً أَوْ عَجَمِيَّةً وَقَدْ كَانَ فِي الْفُرْسِ شُعَرَاءُ وَفِي يُونَانَ كَذلِكَ وَذَكَرَ مِنْهُمْ أرِسْطُو فِي كِتَابِ الْمَنْطِقِ أوميروسَ الشَّاعِرَ وأثْنى عَلَيْهِ . وَكَانَ فِي حِمْيَرَ أيْضاً شُعَرَاءُ مُتَقَدِّمُونَ . وَلَمَّا فَسَدَ لِسَانُ مُضَرَ وَلُغَتُهُمْ الَّتِي دُوِّنَتْ مَقَايِيسُهَا وَقَوَانِينُ إعْرَابِهَا وَفَسَدَتِ اللُّغَاتُ مِنْ بَعْدُ بِحَسَبِ مَا خَالَطَهَا وَمَازَجَهَا مِنَ الْعُجْمَةِ فَكَانَتْ تَجِيلُ[1] الْعَرَبُ بِأنْفُسِهِمْ لُغَةً خَالَفَتْ لُغَةَ سَلَفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فِي الإعْرَابِ جُمْلَةً وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَبِنَاءِ الْكَلِمَاتِ . وَكَذلِكَ الْحَضَرُ أهْلُ الأمْصَارِ نَشَأَتْ فِيهِمْ لُغَةٌ أُخْرَى خَالَفَتْ لِسَانَ مُضَرَ فِي الإعْرَابِ وَأكْثَرِ الأوْضَاعِ وَالتَّصَارِيفِ وَخَالَفَتْ أيْضاً لُغَةَ الْجِيلِ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَاخْتَلَفَتْ هِيَ فِي نَفْسِهَا بِحَسَبِ اصْطِلَاحَاتِ أهْلِ الآفَاقِ فَلأهْلِ الشَّرْقِ وَأمْصَارِهِ لُغَةٌ غَيْرُ لُغَةِ أهْلِ الْمَغْرِبِ وَأمْصَارِهِ وَتُخَالِفُهُمَا أيْضاً لُغَةُ أهْلِ الأنْدَلُسِ وَأمْصَارِهِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشِّعْرُ مَوْجُوداً بِالطَّبْعِ فِي أهْلِ كُلِّ لِسَانٍ لأنَّ الْمَوَازِينَ عَلى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أعْدَادِ الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسَّوَاكِنِ وَتَقَابُلِهَا مَوْجُودَةٌ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ فَلَمْ يُهْجَرِ الشِّعْرُ بِفِقْدَانِ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ لُغَةُ مُضَرَ الَّذِينَ كَانُوا فُحُولَهُ وَفُرْسَانَ مَيْدَانِهِ حَسْبَمَا اشْتَهَرَ بَيْنَ أهْلِ الْخَلِيقَةِ . بَلْ كُلُّ جِيلٍ وَأهْلُ كُلِّ لُغَةٍ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْجِمِينَ وَالْحَضَرِ أهْلِ الأمْصَارِ يَتَعَاطُونَ مِنْهُ مَا يُطَاوِعُهُمْ فِي انْتِحَالِهِ وَرَصْفِ بِنَائِهِ عَلى مَهْيَعِ كَلَامِهِمْ . فَأمَّا الْعَرَبُ أهْلُ هَذَا الْجِيلِ الْمُسْتَعْجِمُونَ عَنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فَيَقْرِضُونَ الشِّعْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي سَائِرِ الأعَارِيضِ عَلى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمُ الْمُسْتَعْرِبُونَ وَيَأتُونَ مِنْهُ بِالْمُطَوَّلَاتِ مُشْتَمِلَةً

---

(١) وفي نسخة أخرى : لجيل .

عَلى مَذاهِبِ الشِّعْرِ وَأغْرَاضِهِ مِنَ النَّسِيبِ وَالْمَدْحِ وَالرِّثَاء وَالْهِجَاء وَيَسْتَطْرِدُونَ في الْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إلى فَنٍّ في الْكَلَامِ . وَرُبَّمَا هَجَمُوا عَلى الْمَقْصُود لأوَّلِ كَلَامِهِمْ وَأكْثَرِ ابْتِدَائِهِمْ في قَصَائِدِهِمْ بِاسْمِ الشَّاعِرِ ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يَنْسِبُونَ . فَأهْلُ أمْصَارِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْعَرَبِ يُسَمُّونَ هَذِهِ الْقَصَائِدَ بِالأَصْمَعِيَّاتِ نِسْبَةً إلى الأصْمَعِيِّ رَاوِيَةِ الْعَرَبِ في أشْعَارِهِمْ . وَأهْلُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَرَبِ يُسَمُّونَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الشِّعْرِ بِالْبَدَوِيِّ وَالْحَوْرَانِيِّ وَالْقَيْسِيِّ . وَرُبَّمَا يُلْحِنُونَ فِيهِ ألْحَاناً بَسِيطَةً لاَ عَلى طَرِيقَةِ الصِّنَاعَةِ الْمُوسِيقِيَّةِ . ثُمَّ يُغَنُّونَ بِهِ وَيُسَمُّونَ الْغِنَاءَ بِهِ بِاسْمِ الْحُورَانِيِّ نِسْبَةً إلى حُورَانَ مِنْ أطْرَافِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ وَمَسَاكِنِهِمْ إلى هَذَا الْعَهْدِ . وَلَهُمْ فَنٌّ آخَرُ كَثِيرُ التَّدَاوُلِ في نَظْمِهِمْ يَجِيئُونَ بِهِ مُعَصَّباً عَلى أرْبَعَةِ أجْزَاءٍ يُخَالِفُ آخِرُهَا الثَّلاَثَةَ في رَوِيِّهِ وَيَلْتَزِمُونَ الْقَافِيَةَ الرَّابِعَةَ في كُلِّ بَيْتٍ إلى آخِرِ الْقَصِيدَةِ شَبِيهاً بِالْمُرَبَّعِ وَالْمُخَمَّسِ الَّذِي أحْدَثَهُ الْمُتَأخِّرُونَ مِنَ الْمُوَلَّدِينَ . وَلِهَؤُلاَءِ الْعَرَبِ في هَذَا الشِّعْرِ بَلاَغَةٌ فَائِقَةٌ وَفِيهِمِ الْفُحُولُ وَالْمُتَأخِّرُونَ وَالْكَثِيرُ مِنَ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَخُصُوصاً عِلْمَ اللِّسَانِ يَسْتَنْكِرُ صَاحِبُهَا هَذِهِ الْفُنُونَ الَّتِي لَهُمْ إذَا سَمِعَهَا وَيَمُجُّ نَظْمَهُمْ إذَا أنْشِدَ وَيَعْتَقِدُ أنَّ ذَوْقَهُ إنَّمَا نَبَا عَنْهَا لاِسْتِهْجَانِهَا وَفِقْدَانِ الإعْرَابِ مِنْهَا . وَهَذَا إنَّمَا أتَى مِنْ فِقْدَانِ الْمَلَكَةِ في لُغَتِهِمْ فَلَوْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِهِمْ لَشَهِدَ لَهُ طَبْعُهُ وَذَوْقُهُ بِبَلاَغَتِهَا إنْ كَانَ سَلِيماً مِنَ الآفَاتِ في فِطْرَتِهِ وَنَظَرِهِ وَإلاَّ فَالإعْرَابُ لاَ مَدْخَلَ لَهُ في الْبَلاَغَةِ إنَّمَا الْبَلاَغَةُ مُطَابَقَةُ الْكَلاَمِ لِلْمَقْصُودِ وَلِمُقْتَضَى الْحَالِ مِنَ الْوُجُودِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ الرَّفْعُ دَالاًّ عَلى الْفَاعِلِ وَالنَّصْبُ دَالاًّ عَلى الْمَفْعُولِ أوْ بِالْعَكْسِ وَإنَّمَا يَدُلُّ عَلى ذلِكَ قَرَائِنُ الْكَلاَمِ كَمَا هُوَ في لُغَتِهِمْ هَذِهِ . فَالدَّلاَلَةُ بِحَسَبِ مَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ أهْلُ الْمَلَكَةِ فَإذَا عُرِفَ اصْطِلاَحٌ في مَلَكَةٍ وَاشْتَهَرَ صَحَّتِ الدَّلاَلَةُ وَإذَا طَابَقَتْ تِلْكَ الدَّلاَلَةُ الْمَقْصُودَ وَمُقْتَضَى الْحَالِ صَحَّتِ الْبَلاَغَةُ وَلاَ عِبْرَةَ بِقَوَانِينِ النُّحَاةِ في ذلِكَ . وَأسَالِيبُ الشِّعْرِ وَفُنُونُهُ مَوْجُودَةٌ في أشْعَارِهِمْ هَذِهِ مَا عَدَا حَرَكَاتِ الإعْرَابِ في أوَاخِرِ الْكَلِمِ فَإنَّ غَالِبَ كَلِمَاتِهِمْ مَوْقُوفَةُ الآخِرِ . وَيَتَمَيَّزُ

عِنْدَهُمُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ بِقَرَائِنِ الْكَلَامِ لَا بِحَرَكَاتِ الإِعْرَابِ .

فَمِنْ أَشْعَارِهِمْ عَلى لِسَانِ الشَّرِيفِ ابْنُ هَاشِمٍ يَبْكِي الْجَازِيَةَ بِنْتُ سَرْحَانٍ ، وَيَذْكُرُ ظَعْنَهَا مَعَ قَوْمِهَا إِلى الْمَغْرِبِ :

قَالَ الشَّرِيفُ ابْنُ هَاشِمٍ عَلِي ... تَرَى كَبِدِي حَرَّى شَكَتْ مِنْ زَفِيرِهَا
يَغِزُّ لِلإِعْلَامِ أَيْنَ مَا رَأَتْ خَاطِرِي ... يَرُدُّ غُلَامُ الْبَدْوِ يَلْوِي عَصِيرِهَا
وَمَاذَا شَكَاةَ الروح مما طرا لها ... عـداة وزائع تلف الله خبيرهـا
يحسّ إن قطاع عامر ضميرهـا ... طـوى وهنـد جافي ذكيرهـا
وعادت كما خوارة في يد غاسل ... على مثل شوكِ الطلح عقدوا يسيرها
تجابذوهـا اثنين والنزع بينهـم ... على شوك لعه والبقايا جريرهـا
وباتت دموعُ العين ذارفات لشانها ... شـبيه دوّار السـواني يديرها
تدارك منها النجم حذراً وزادها ... مرون يجي متراكباً من صبيرها
يصبّ من القيعانِ من جانب الصَّفا ... عيون ولجاز البرق في غزيرهـا
هاذا الغنى حتى تسابيت غزوة ... ناضت من بغداد حتى فقيرها
ونادى المنادي بالرحيل وشـدُّوا ... وعـرج عاريهـا على مسـتعيرها
وشدَّ لها الأدهم دياب بن غانم ... على أيدين ماضي وليد مقرب ميرها
وقال لهم حسن بن سرحان غرِّبُوا ... وسوقوا النجوع إن كان أنا هو غفيرها
ويركض وبيده شـهامه بالتسـامح ... وباليمين لا يجـدوا في مُغيرهـا
غدرني زيان السـيح مـن عابس ... وما كان يرضى زين حمير وميرهـا
غدرني وهـو زعماأصد يقي وصاحبي ... وأناليـه ما مـن درقتي ما يديرهـا
ورجع يقول لهم بلال بنِ هاشـم ... بحر البـلاد العطشـى ما بخيرهـا
حرام علي باب بغـداد وأرضهـا ... داخل ولا عائد ركيزه من نعيرهـا
تصدف روحي عن بلاد ابن هاشـم ... على الشمس أو حول الغظامن هجيرها

وباتت نيرانُ العذارى قوادح — يلوذ وبجرجان يشدوا أسيرها

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي رِثَاء أَمِيرِ زَنَاتَةَ أَبِي سَعْدَى الْيَفْرُنِي مُقَارِعِهِمْ بِافْرِيقِيَّةَ وَأَرْضِ الْزَابِ وَرِثَاؤُهُمْ لَهُ عَلى جِهَةِ التَهكُّمِ :

تقولُ فتاةُ الحيِّ[1] سعدى وهاضها — لها في ظعون الباكرين عويلُ

أيا سائلِي عن قبرِ الزناتي خليفه — خذ النعت مني لا تكون هبيلُ

تراه يعالي وادي ران وفوقهُ — من الربط عيساوي بناه طويلُ

أراهُ يميل النور من شارع النقا — به الواد شرقاً واليراع دليلُ

أيا لهف كبدي على الزناتي خليفه — قد كان لأعقاب الجياد سليلُ

قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم — جراحه كافواه المزادِ تسيلُ

أيا جائزاً مات الزناتي خليفه — لا ترحل إلا أن يريدَ رحيلُ

ألا واش رحَّلنا ثلاثين مرةً — وعشراً وستا في النهارِ قليلُ

وَمِنْ قَوْلِهِمْ عَلى لِسَانِ الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ يَذْكُرُ عِتَاباً وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَاضِي بْنِ مُقرب :

تبدَّى ماضي الجبار وقال لي — أشكر ما نحنا عليك رضاشِ

أشكر أعد ما بقي ودّ بيننا — ورانا عريب عربا لا بسين نماشِ

نحن غدينا نصدفو ما قضى لنا — كما صادفت طعم الزبادِ طشاشِ

أشكر أعد إلى يزيد ملامه — ليحدو ومن عمر بلاده عاشْ

ان كان نبْت الشوك يلقح بأرضكم — هنا العرب ما زدنا لهن صياشِ

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ رِحْلَتِهِمْ إلى الْغَرْبِ وَغَلَبِهِمْ زَنَاتَةَ عَلَيْهِ :

وَأيُّ جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم

وأي رجال ضاع قبلي جميلها .

---

(١) كذا . وفي ب : نقاة الخد .

لقد كنت أنا وياه في زهو بيتنا　　عنانــي بحجة ما غبانــي دليلهــا

وعـدت كأني شـاربٌ من مدامـةٍ　　منِ الخمرِ فهو مَا قدر من يميلهـا

أو مثل شـمطامات مظنون كبدها　　غريبـاً وهي مدوَّخـه عن قبيلهـا

أتاها زمان السـوء حتى تدوّحـت　　وهي بين عربا غافلا عن نزيلهـا

كذلك أنا مما لحاني منَ الوَجـى　　شـاكي بكبدِ باديتهـا زعيلهـا

وأمـرت قومي بالرحيـل وبكَّروا　　وقـوّوا وشـدَّاد الحوايـا حميلهـا

قعـدنا سـبعة أيام محبوس نجعنا　　واليـدو ما ترفـع عمـود يقيلهـا

نظلّ على حـداب الثنايـا نوازي　　يظل الجرى فوق النضا ونصيلهـا

وَمِنْ شِعْرِ سُلْطَانِ بْنِ مُظَفَّرِ بْنِ يَحْيَى مِنَ الزَوَاوِدَةِ[1] أَحَدِ بُطُونِ رِيَاح وَأَهْلِ الرِيَاسَةِ فِيهِمْ ، يَقُولُهَا وَهُوَ مُعْتَقَلٌ بِالْمَهْدِيَّةِ في سِجْنِ الأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي حَفْصٍ أَوَّلِ مُلُوكِ أَفْرِيقِيَّةَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ :

يقول وفي بوح الدجا بعد وهنـة　　حرام على أجفـان عيني منامهـا

يا من لقلب حالف الوجد والأسـى　　وروح هيامي طـال ما في سـقامها

حجازيـــة بدويـــة عربيـــة　　عداويـة ولهـا بعيـد مرامهـا

مولعـة بالبـدو لا تألف القـرى　　سـوى عانكُ الوعسا يؤتي خيامها

غيات ومشـتاها بها كل شـتوة　　ممحونة بيها وبيها صحيح غرامهـا

ومرباها عشـب الأراضي من الحيا　　يواتي مِن الخور الخلا يـا جسـامها

تشـوق شـوق العين ممّا تداركت　　عليها من السحبِ السـواري عمامها

وماذا بكت بالمـا وماذا تناحطـت　　عيون غرار المزنِ عذبـا حمامهـا

كأنَّ عروس البكرِ لاحت ثيابهـا　　عليهـا ومن نَوْرِ الأقَاحِي خزامهـا

فـلاة ودهنـا واتسـاعَ ومنـة　　ومرعى سـوى ما في مراعي نعامها

ومشروبها من مخض ألبان شـولها　　غنيـم ومن لحم الجوازي طعامهـا

---

(١) كذا . وفي نسخة : الدواودة .

تَفَانَت عن الأبْواب والموقف الـذي ... يشيب الفتى مما يقاسـي زحامها
سـقى الله ذا الواذي المشجر بالحيا ... وبلا ويحيى ما بلي من رمامهـا
فكافأتهـا بالـودّ منـي وليتنـي ... ظفرت بأيـام مضت في ركامهـا
ليالـي أقواس الصبا في سـواعدي ... إذَا قمت لم تحظ من أيدي سهامها
وفرسي عديد تحت سرجي مشـاقة ... زمان الصبا سـرجاً وبيدي لجامها
وكم من رداح أسـهرتني ولم أرى ... من الخلق أبهى من نظام ابتسـامها
وكم غيرهـا من كاعب مرجحنـة ... مطرّزة الأجفـان باهـي وشـامها
وَصَفقت من وجدي عليها طريجة ... بكفي ولم ينسـى جداها ذمامهـا
ونار بخطب الوجد توهج في الحشا ... وتوهج لا يطفا من المـاء ضرامهـا
أيا من وعدتي الوعد هذا إلى متى ... فني العمر في دار عماني ظلامهـا
ولكن رأيتُ الشمس تُكْسفُ سَـاعةً ... ويغمى عليهـا ثم يبـدا غيامهـا
بنودٌ وراياتٌ من السـعدِ أقبلت ... إلينـا بعـونِ اللهِ يهفو علامهـا
أرى في الفلا بالعين أظعان عزوتـي ... ورمحي على كتفي وسـيري أمامها
بجرعا عتاقِ النوق من فوق شامس ... أحب بـلاد الله عندي حشـامَها
إلى منـزل بالجعفريـة للّـوى ... مقيم بهـا ما لـذ عندي مقامهـا
ونلقى سـراة من هلالِ بن عامرٍ ... يزيل الصـدا والغل عني سـلامها
بهم تضْربُ الأمثال شـرقاً ومغرباً ... إذا قاتلوا قوماً سـريع انهزامهـا
عليهم ومن هو في حماهم تحيـة ... مدى الدهر ما غنى يفينا حمامهـا
فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى ... فذي الدنيا ما دامت لاحد دوامهـا

وَمِنْ أَشْعَارِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ قَوْلُ خَالِدِ بْنِ حَمْزَة بْنِ عُمَرَ، شَيْخُ الْكُعُوبِ، مِنْ أَوْلَادِ أَبِي اللَّيْلِ. يُعَاتِبُ أَقْتَالَهُمْ أَوْلَادُ مُهَلْهِلٍ وَيُجِيبُ شَاعِرَهُمْ شِبْلِ بْنِ مِسْكِيَانَة بْنِ مُهَلْهِلٍ. عَنْ أَبْيَاتٍ فَخَرَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِقَوْمِهِ:

يقول وذا قول المصاب الذي نشـا ... قـوارع قيعـان يعانـي صعابهـا

يريح بها حادي المصاب إذا سعى ... فنونا من انشاد القوافي عذابها
محيرة مختارة من نشادها ... تحدّى بها تام الوشا ملتهابها
مغربلة عن ناقد في غضونها ... محكمة القيعان دابي ودابها
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى ... قوارع من شبل وهذي جوابها
اشبل جنينا من حباك طرائفا ... فراح يريح الموجعين الغنا بها
فَخرت ولم تقصر ولا أنت عادمٌ ... سوى قلت في جمهورها ما أعابها
لقولك في أمّ المتين بنِ حمزةٍ ... وحامي حماها عاديا في حرابها
أما تعلم أنه قامها بعد ما لقي ... رصاص بني يحيى وغلاق دابها
شهاباً من أهْلِ الأمر يا شبل خارق ... وهل ريت من جاللوغى واصطلى بها
سواها طفاها أضرمت بعد طفيه ... وأثنى طفاها جاسراً لا يهابها
واضرمت بعد الطفيتين ألن صحت ... لفاس إلى بيت المنى يقتدى بها
وبان لوالي الأمر في ذا انشحابها ... فصار وهي عن كبر الاسنة تهابها
كما كان هو يطلب على ذا تجنبت ... رجال بني كعب الذي يتقى بها

وَمِنْهَا فِي الْعِتَابِ :

وليدا تعاتبتوا أنا أغنى لأنني ... غنيت بمعلاق الثنا واغتصابها
عليّ ونا ندفع بها كل مبضع ... بأسياف ننتاش العدا من رقابها
فإن كانت الأملاك بغت عرايس ... علينا بأطراف القنا اختضابها
ولا بعدها الارهاف وذبل ... وزرق كالسنة الجناش انسلابها
بني عمنا ما نرتضي الذل غلمه ... تسير السبايا والمطايا ركابها
وهي عالما بأنّ المنايا تنيلها ... بلا شك والدنيا سريع انقلابْها

وَمِنْهَا فِي وَصْفِ الظَّعَائِنِ :

قطعنا قطوع البيد لا نختشي العدا ... فتوق بحوبات مخوف جنابها

ترى العين فيها قل لشبل عرائف | وكلّ مهاةٍ محتظيها ربا بها
ترى أهلها غبّ الصباح ان يفلها | بكل حلوب الجوف ما سدّ با بها
لها كل يوم في الأرامي قتائل | ورا الفاجر الممزوج عفو رضا بها

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي الأَمْثَالِ الحِكَمِيَّةِ

وَطلبُك في الممنوع منك سفاهةٌ | وصدُّك عمن صدَّ عنك صوابُ
إذَا رَأيت أناساً يغلقوا عنك با بهم | ظهورُ المطايا يفتح الله بابُ

وَمِنْ قَوْلِ شِبْلٍ يَذْكُرُ انْتِسَابَ الْكُعُوبِ إلى بُرْجُم :

لشيب وشبان من أولاد برجم | جميع البرايا تشتكي من ضهادها

وَمِنْ قَوْلِ خَالِدٍ يُعَاتِبُ إخْوَانَهُ فِي مُوَالاَةِ شَيْخِ الْمُوَحِّدِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ تَافْرَاكِينَ الْمُسْتَبِدِّ بِحِجَابَةِ السُلْطَانِ بِتُونِسَ عَلى سُلْطَانِهَا مَكْفُولَةِ أَبِي اسْحَقَ إبْنِ السُلْطَانِ أَبِي يَحْيَى وَذلِكَ فِيمَا قَرُبَ مِنْ عَصْرِنَا :

يقول بلا جهل فتى الجود خالدٌ | مقالةَ قوّال وقال صوابُ
مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن | هريجاً ولا فيما يقولُ ذهابُ
تهجست معنا نا بها لا لحاجةٍ | ولا هرج ينقاد منه معابُ
وكنت بها كبدي وهي نعم صابة | حزينة فكر والحزين يصابُ
تفوّهت بادي شرحها عن مآرب | جرت من رجال في القبيل قرابُ
بني كعب أدنى الأقربين لدّمنا | بني عمّ منهم شايبٌ وشبابُ
جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم | مصافاة ودٌ واتساع جناب
وبعضهم ملنا له عن خصيمه | كما يعلموا قولي يقينه صواب
وبعضهمو مرهوب من بعض ملكنا | جزاعاً وفي جوّ الضمير كتاب
وبعضهمو جانا جريحاً تسمحت | خواطر منها للنزيل وهابُ

وبعضهمو نظار فينا بسوءة نقهناه حتى ما عنا به سنابُ
رجع ينتهي مما سفهنا قبيحه مراراً وفي بعض المرار يهابُ
وبعضهمو شاكي من أوغاد قادر غلق عنه في أحكام السقائف بابُ
فصمناه عنه واقتضي منه مورد على كره مولى البالقي وديـاب
ونحن على دافي المدى نطلب العلا لهم ما حططنا للفجور نقاب
وحزنا حمى وطن بترشيش بعدما نفقنا عليها سبقا ورقاب
ومهد من الأملاك ما كان خارجاً على أحكام والي أمرها له ناب
بردع قروم من قروم قبيلنا بني كعب لاواها الغريم . وطاب
جرينا بهم عن كل تاليف في العدا وقمنا لهم عن كل قيد مناب
إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمة ربيها وخيراته عليه نصاب
وركبوا السَّبايا المثمنات من أهْلها ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
وساقوا المطايا يالشرا لا نسوا له جماهير ما يغلو بها بجلاب
وكسبوا من أصناف السعايا ذخائر ضخام لحزات الزمانِ تصاب
وعادوا نظير البرمكيين قبل ذا وإلا هلالا في زمان ديـاب
وكانوا لنا درعاً لكل مهمة إلى أن بان من نار العدوّ شهاب
وخلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا ملامه ولا دار الكرام عتاب
كسوا الحي جلباب البهيم لستره وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
كذلك منهم حانس ما دار النبا ذهل حلمي ان كان عقله غـاب
يظنُّ ظنوناً ليس نحن بأهلها تمنى يكن له في السماح شعاب
خطا هو ومن واتاهُ في سوّ ظنه بالاثبات من ظنِّ القبايح عاب
فوا عزوتي ان الفتى بو محمد وهوب لآلاف بغير حساب
وبرخت الأوغاد منه ويحسبوا بروحه ما يحيى بروح سحاب
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع لقوا كل ما يستاملوه سراب

وهو لو عطى ما كان للرأي عارف ... ولا كان في قلة عطاه صـواب
وان نحن ما نستاملوا عنه راحـة ... وانــه باسـهام التـلاف مصـاب
وان ما وطا ترشيش يضياق وسـعها ... عليـه ويمشـي بالفـزوع لـزاب
وانــه منهـا عن قريـب مفاصـل ... خنــوج عنــاز هوالهــا وقبــاب
وعن فاتنات الطرف بيض غوانـج ... ربوا خلف اسـتار وخلف حجـاب
يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبَوا ... بحســن قوانــين وصــوت ربــاب
يضلوه عن عدم اليمين وربَّمَـا ... يطــارح حتــى ما كأنَّــه شـاب
بهـم حازلـه زمَّه وطوع أوامـر ... ولــذة مأكول، وطيــبِ شـراب
حرام على ابن تافركين ما مضـى ... من الــودّ إلا ما بــدل بحــراب
وان كان له عقل رجيح وفطنـة ... يلجج في اليـم الغريــق غــراب
وأما البدا لا بدّها من فياعـل ... كبارَ إلى أن تبقى الرجال كبـاب
ويحمي بها سـوق علينا سـلاعه ... ويحمــار موصـوف القنــا وجعاب
ويمسـي غلام طالب ريح ملكنا ... ندوما ولا يمســي صحيح بنـاب
أيا واكلين الخبز تبغوا أدامـه ... غلطتوا أدمتوا في السـموم لبــاب

وَمِنْ شِعْرِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي عَامِرٍ لِهَذَا الْعَهْدِ أحد بُطُونِ زُغْبَةَ يُعَاتِبُ بَنِي عَمِّهِ الْمُتَطَاوِلِينَ إِلَى رِيَاسَتِهِ :

محبــرة كالــدرِّ في يــدِ صانــعٍ ... إذَا كَان في سِلْكِ الحريرِ نِظـام
أباحَهَا مِنْهَا فِيهِ أسـباب ما مضى ... وشــاء تبارك والضعــون تســام
غدامنه لام الحيِّ حيين وانشـطت ... عصاهــا ولا صبنــا عليــه حكام
ولكن ضميري يوم بان بهم إلينـا ... تبــرَّم على شوك القتــاد بــرام
وإلا كأبـراص التهامـي قـوادح ... وبين عــواج الكانفــات ضـرام
والا لكان القلب في يــد قابض ... أتاهــم بمنشــار القطيــع غشـام
لما قلت سما من شقا البين زارني ... إذا كان ينــادي بالفراق وخـام

ألا يا ربوع كان بالأمس عامر　　بيحيى وحله والقطين لمام
وغيد تداني للخطا في ملاعب　　دجى الليل فيهم ساهرٌ ونيام
ونعم يشوف الناظرين التحامها　　لنا ما بدا من مهرق وكظام
وعرود باسمها ليدعو لسربها　　واطلاق من شرب المها ونعام
واليوم ما فيها سوى البوم حولها　　ينوح على اطلال لها وخيام
وقفنا بها طوراً طويلاً نسالها　　بعين سخينا والدموع سجام
وَلَا صَحَّ لِي مِنْهَا سِوَى وَحشُ خَاطِرِي　　وَسَقِمِي مِنْ أَسْبَابِ إِنْ عَرِفْتَ أَوْهَام
ومن بعد ذا تدّى لمنصور بو علي　　سلام ومن بعد السلام سلام
وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكم　　دخلتم بحور غامقات دهام
زواخر ما تنقاس بالعود إنما　　لها سيلات على الفضا وأكام
ولا قستمو فيها قياسا يدلكم　　وليس البحور الطاميات تعام
وعانوا على هلكاتكم في ورودها　　من الناس عدمان العقول لئام
أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم　　قرار ولا دنيا لهن دوام
الا غناهمو لو ترى كيف زايهم　　مثل سراب فلاه ما لهن تمام
خلو القنا يبغون في مرقب العلا　　مواضع ما هيا لهم بمقام
وحق النبي والبيت وأركانه العلى　　ومن زارها في كل دهر وعام
لبرّ الليالي فيه ان طالت الحيا　　يذوقون من خمط الكساع مدام
ولا برّها تبقى البوادي عواكف　　بكل رديني مطرب وحسام
وكل مسافة كالسد إياه عابر　　عليها من أولاد الكرام غلام
وكل كميت يكتعص عض نابه　　يظل يصارع في العنان لجام
وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة　　وتولدنا من كل ضيق كظام
بالأبطال والقود الهجان وبالقنا　　لها وقت وجنات البدور زحام
أتجحدني وأنا عقيد نقودها　　وفي سن رمحي للحروب علام

ونحـــن كأضـــراس الموافي بنجعكم حتى يقاضـوا من ديـون غـرام
متى كان يوم القحط يا ميرأ بوعلي يلقى سـعايا صايريــن قــدَّام
كذلك بو حمو إلى اليســر ابعته وخلى الجيــاد العاليــات تســام
وخلِّ رجالاً لا يرى الضيم جارهــم ولا يجمعوا بدهى العـدو زفـام
ألا يقيموهــا وعقــد بؤســهم وهـم عــذر عنــه دائمـاً ودوام
وكم ثار طعنها على البدو سـابق ما بين صحاصيح وما بين حســام
فتى ثار قطار الصوى يومنا على لنا أرض ترك الظاعنين زمـام
وكم ذا يجيبوا أثرها من غنيمـة حليف الثنـا فشـاع كل غيـام
وإن جاء خافـوه الملوك ووسـعوا غدا طبعه يجدى عليـه قيـام
عليكم سـلام الله من لسن فاهم ما غنـت الورقـا ونـاح حمـام

وَمِنْ شِعْرِ عَرَبِ نِمْرٍ بِنَوَاحِي حُورَانَ لِامْرَأَةٍ قُتِلَ زَوْجُهَا فَبَعَثَتْ إلى أَحْلَافِهِ مِنْ قَيْسٍ تُغْرِيهِمْ بِطَلَبِ ثَأْرِهِ تَقُولُ :

تقـول فتَّاة الحيّ أمّ سـلامه بعينٍ أراعَ الله من لا رثى لهـا
تبيت بطـول الليل ما تألف الكرى موجعـة كان الشـقا في مجالهـا
على ما جرى في دارها وبو عيالها بلحظـة عين البـين غير حالهـا
فقدنا شـهاب الدين يا قيس كلكم ونمتوا عن أخذ الثار ماذا مقالهـا
أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرّني ويبـرد من نيران قلبي ذبالهـا
أيا حين تسـريح الذوائب واللحى وبيضُ العذارى ما حميتوجمالهـا

★ ★ ★